موسوعة
الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية



صلاح الدين الأيوبى





أ.د. سعيد عاشور

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

التاريخ الوسيط



صلاح الدين الأيوبى

تأليف
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة



نصب تذكارى لصلاح الدين الأيوبى - دمشق

٩٥٦,٥٤٥ سعيد عبد الفتاح عاشور.
س ع ص ل صلاح الدين الأيوبى/ تأليف سعيد عبد الفتاح عاشور. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٦م.
أ-د ٥٦ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ١٨).
تدمك: ١ - ٢١٣١ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - الحركة الصليبية ونشأتها. ٢- صلاح الدين وحياته السياسية. ٣- صلاح الدين وانتصاراته. ٤- صلاح الدين ونهاية عصره. أ- العنوان. ب- السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٨٣٧٦ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

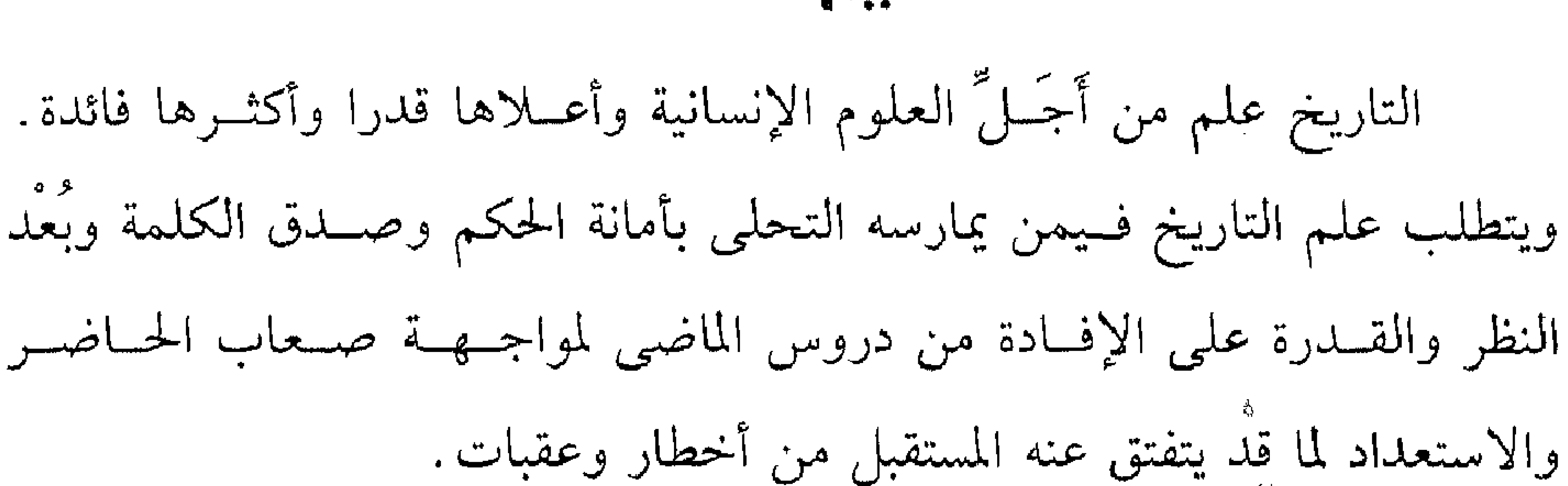
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

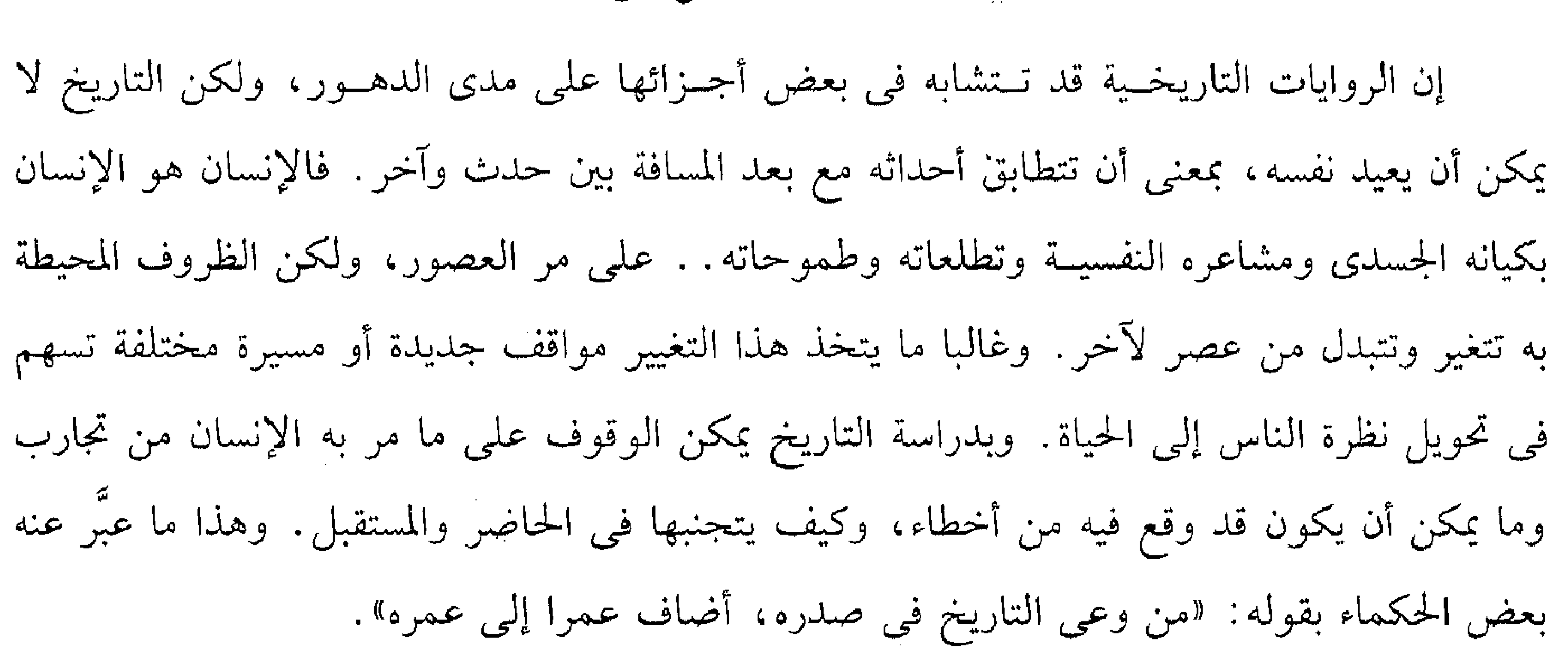
INFO@darelfikrelarabi.com



تقديم السلسلة



التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.



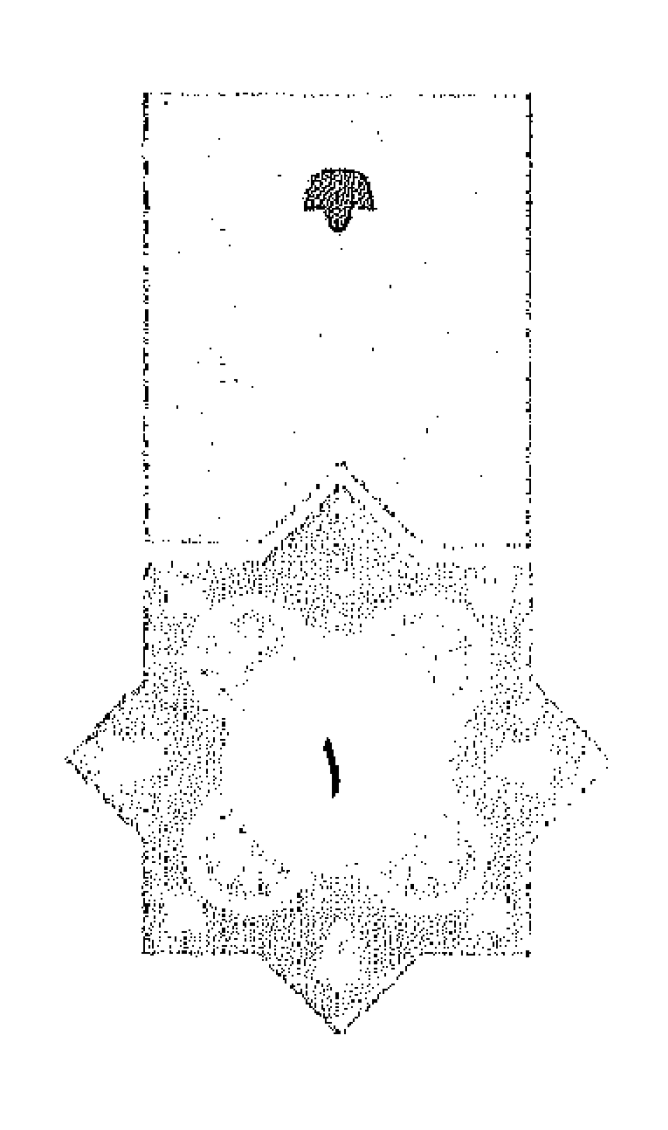
إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





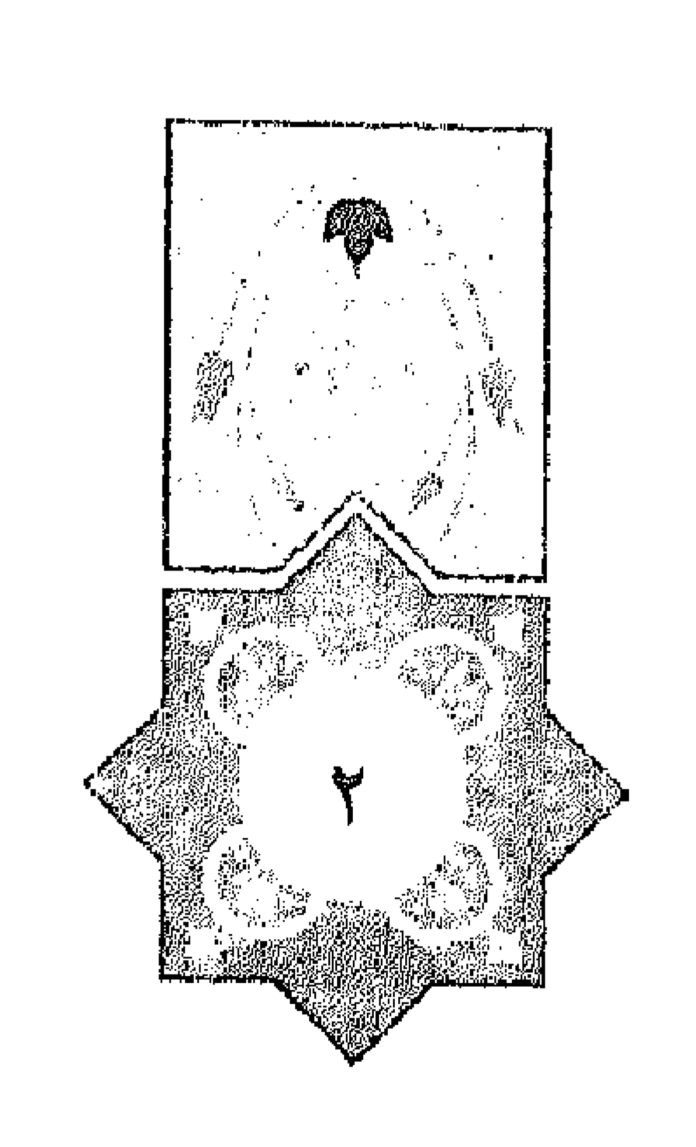
مقدمة

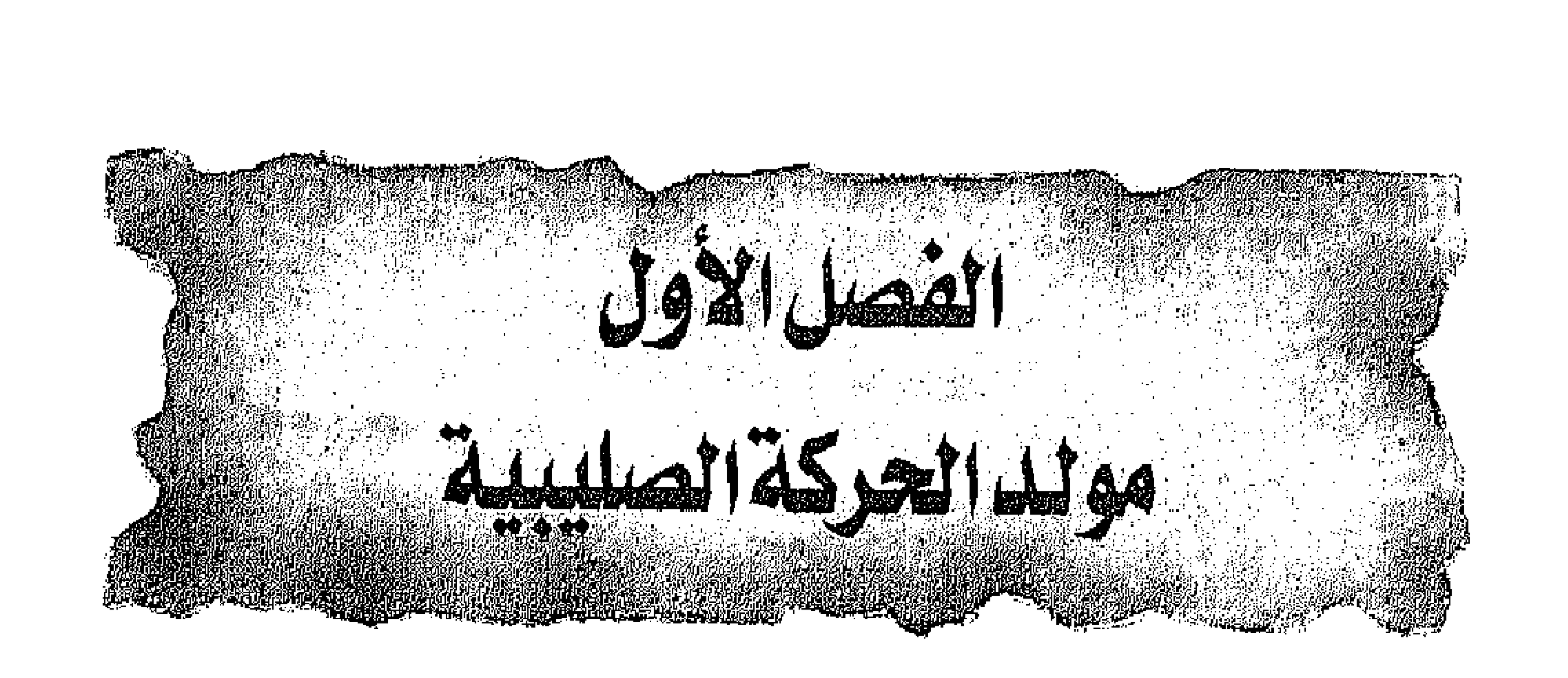
يقول القاضى بهاء الدين بن شداد عن البطل صلاح الدين مترحما عليه:

«اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك؛ وجاهد رجاء رحمتك، فارحمه».

وهذا العرض عن سيرة بطل الأبطال السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي يتناول مولد الحركة الصليبية العدوانية على يد البابا أوروبان الثانى سنة ١٠٩٥م، والتحديات التي كان على صلاح الدين أن يواجهها فى ذلك المنعطف الخطير من تاريخ الأمة الإسلامية، وجهود البطل من أجل توحيد العالم الإسلامي تحت راية الجهاد من القاهرة ودمشق، وصولا إلى معركة حطين ودحر قوى العدوان الصليبي سنة ١١٨٧م، ثم استرداد بيت المقدس فى يوم الجمعة ١٢ أكتوبر ١١٨٧م، الذى يوافق السابع والعشرين من شهر رجب وهى ذكرى ليلة الإسراء والمعراج التى أسرى الله فيها ليلا بنبيه الكريم ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وفى الكتاب أيضا أمثلة عن سماحة ونبل البطل صلاح الدين حتى مع أعدائه، الأمر الذى صار حديث الجميع شرقا وغربا.





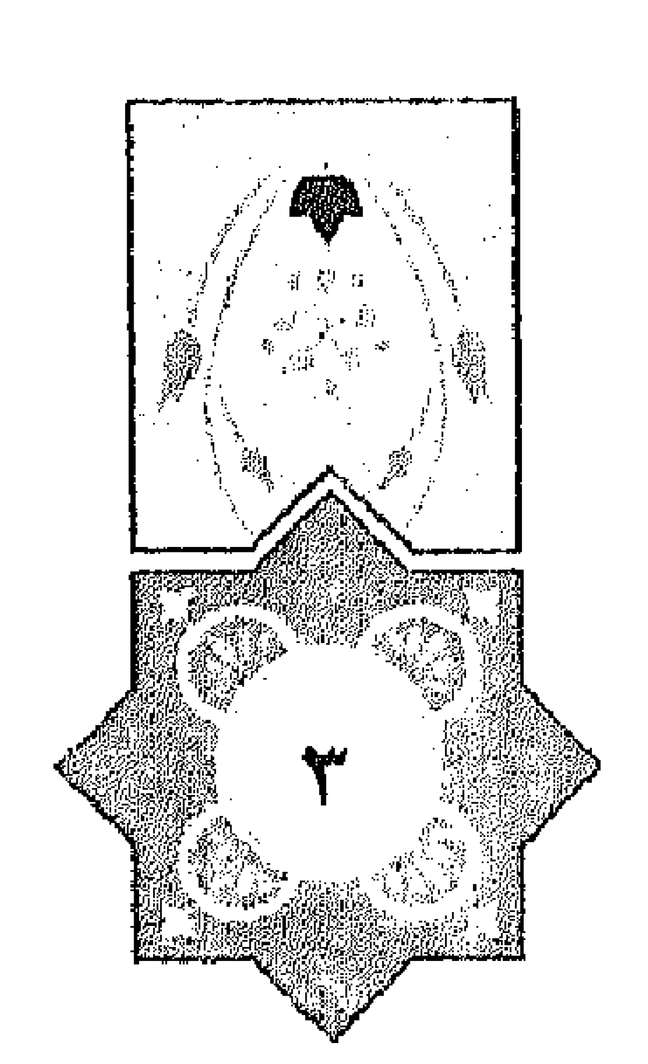
أجمع علماء الدراسات الإنسانية على أن التاريخ مدرسة كبيرة يستفيد فيها الإنسان المعاصر من حسنات السابقين ويحاول أن يتجنب ما وقعوا فيه من أخطاء ليكتسب من هذه الحصيلة خبرة تمكنه من مواجهة ما قد يعترضه من صعاب وأخطار.

وإذا كان من الأمثال الجارية التى تتباين الآراء فى الحكم عليها أن التاريخ يعيد نفسه، بمعنى أن أحداث التاريخ تتكرر على مر العصور، فإن هذا القول هو الآخر فى حاجة إلى تمحيص؛ لأن أحداث التاريخ لا يمكن أن تتطابق على مر العصور؛ ذلك أن لكل عصر ظروفه ومستواه الفكرى والحضارى، ويرتبط بهذا أو ذاك نظرة الإنسان فى عصره إلى الحياة من زاوية غير تلك التى نظر منها السابقون إلى الحياة؛ ولذا نستطيع أن نقول بثقة: إن أحداث التاريخ إن لم يتطابق معظمها على مر العصور فإنها تتشابه فى كثير من الحالات والمواقف. وهذا هو ما نستهدفه عندما نقول: إن التاريخ مدرسة يتعلم فيها البشر ويستفيد من تجارب السابقين ليتفادى ما يواجههم من أخطار وصعاب.

وثمة حقيقة أخرى أقرها القرآن الكريم ورددها التاريخ، توضح أنه ما من أمة من الأمم أو دولة من الدول على مر عصور التاريخ قدر لها البقاء والاستمرار على حال واحد من الرفعة أو قوة نفوذ، وإنما هى أيام يداولها الله بين الناس الذين خلقهم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا.

وهكذا فإننا عندما نتكلم عن صلاح الدين، نجد أنفسنا أمام عدة حقائق كان لها أثرها فى ظهور صلاح الدين على مسرح التاريخ، ثم فى طبيعة صلاح الدين ومدى حرصه على المغامرة دفاعا عن العقيدة والبلاد والعباد.

وعندما نقول: إن صلاح الدين بطل من أبطال الإسلام فى العصور الوسطى، لابد وأن نفرق بين ما كانت عليه جيوش المسلمين وطبيعة حركتهم التوسعية فى فجر الإسلام وصدره، وبين أحوال الدولة الإسلامية والإطار الذى كانت تتحرك داخله، لقد بدأت حركة المسلمين

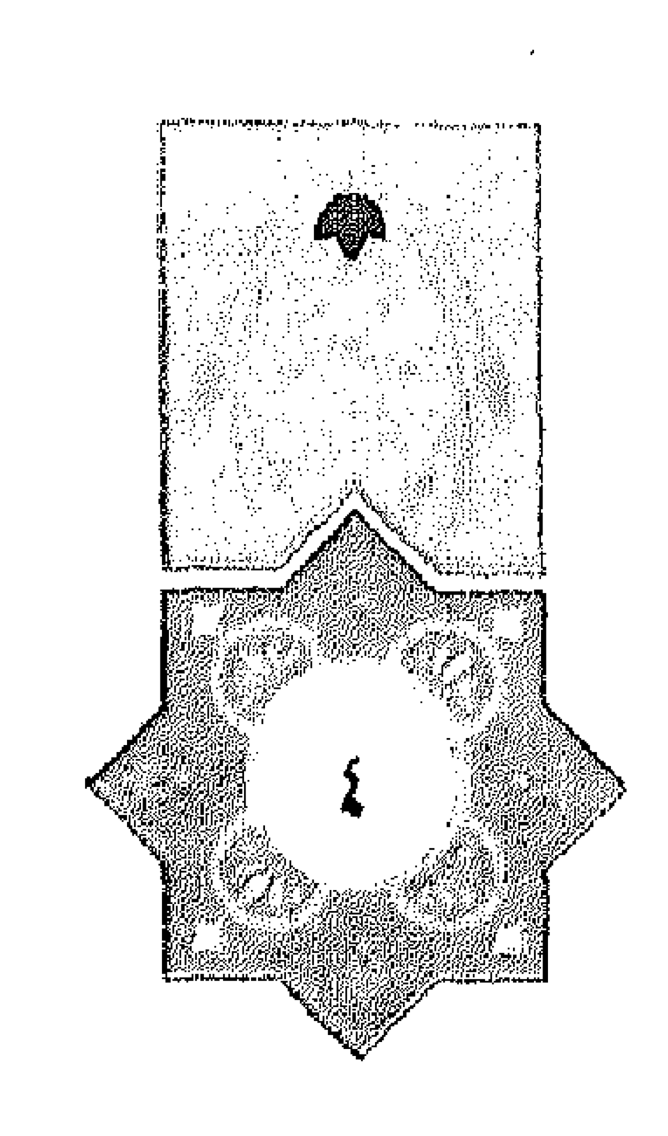


التوسعية فى فجر الإسلام على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ومازالت تنمو حتى امتدت الدولة الإسلامية من البحر المحيط-أو بحر الظلمات-وهو المحيط الأطلسى-غربا حتى حدود الصين شرقا. وكان ذلك فى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة. وربما استمدت الدولة الإسلامية قوتها فى تلك المرحلة من صفاء روح المسلمين وتمسكهم بأصول الإسلام وتعاليمه وآدابه، مما جعل من المسلمين طاقة كبرى تخشاها بقية الدول المجاورة وغير المجاورة، ولكن عوامل الضعف أخذت تبدو على الدولة الإسلامية فى القرن الرابع، وذلك بعد أن تفشت فى العالم الإسلامى مظاهر الترف والركون إلى حياة التنعم، والتخلى عن سنة السلف الصالح وآداب الإسلام وقواعده. وهكذا حل بالمسلمين تدريجيا قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** (١٦) ﴾ [الإسراء].

وثمة خصم كان يترقب ساعة الانتقام من المسلمين ودولتهم، هم رعايا الكنيسة المسيحية الذين عز عليهم أن ينتزع المسلمون من أيديهم بلادا كانت بمثابة المسرح الذى باشر عليه السيد المسيح وأمه مريم العذراء نشاطهما ولكن المسيحيين فى القرون الأولى من تاريخهم كانوا أضعف من أن يقوموا بحرب شاملة ضد خصومهم، حتى إذا ما كان القرن العاشر للميلاد-الرابع للهجرة فى الإسلام-اتضح لهم أن المسلمين غدوا فى وضع أضعف من أن يحموا أنفسهم، وبالتالى فإن ساعة الثأر من المسلمين قد حانت.

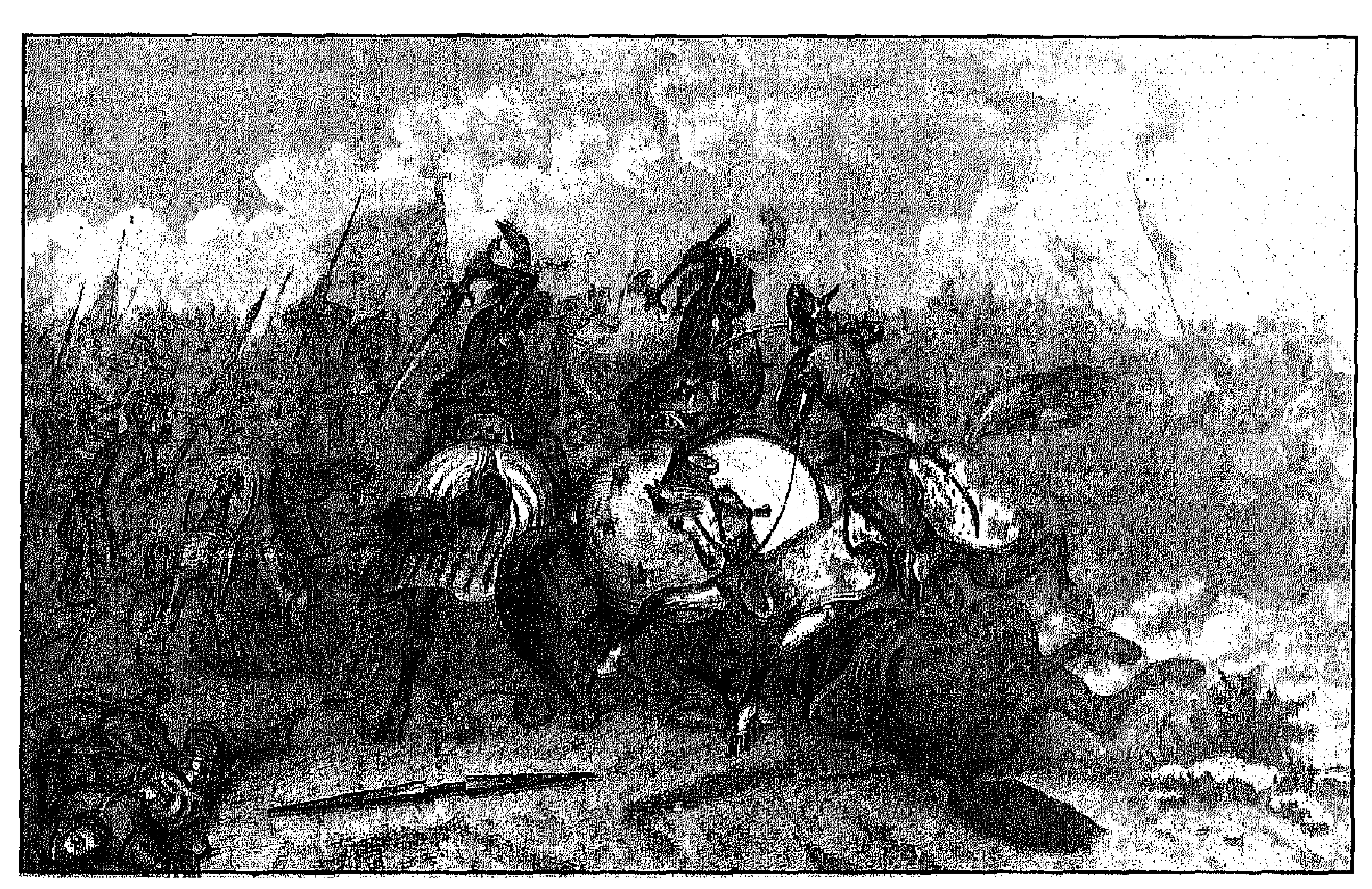
وهكذا بدأت الحرب التى شنها المسيحيون ضد الإسلام والمسلمين. وكانت بداية تلك الحركة فى غرب أوروبا، حيث إن المسلمين الجدد ممثلين فى قبائل الترك-وأخطرهم الأتراك السلاجقة-والأكراد الذين تحمسوا للدفاع عن الإسلام والمسلمين فى غرب آسيا، فى حين دخل الغرب الأوروبى فى مرحلة صحوة تزعمتها البابوية، واستهدفت هذه الصحوة ضرب المسلمين فى الشرق الأدنى وانتزاع الأماكن المقدسة المسيحية من أيديهم، مما فتح الباب على مصراعيه لحركة صليبية شاملة شنها الغرب الأوروبى المسيحى على قلب العالم الإسلامى.

وقد ولدت الحركة الصليبية فى أجواء مشبعة بالمشاكل والاختناقات، فالعالم المعروف عندئذ - فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر للميلاد، منقسم على نفسه دينيا ومذهبيا وسياسيا .. فمن الناحية الدينية انقسم العالم المعروف إلى جبهتين كبيرتين استوعبتا معظم أقاليم حوض البحر المتوسط، فضلاً عن غرب آسيا وشرق أفريقيا وغرب أوروبا، وقد غدت هذه الأقاليم قسمة بين الإسلام والمسيحية، أما من الناحية العنصرية، فقد ظهرت الخلافات بين العرب والترك، وبين الروم والفرنجة، فضلاً عما صار بين أتباع الإسلام وأتباع المسيحية.

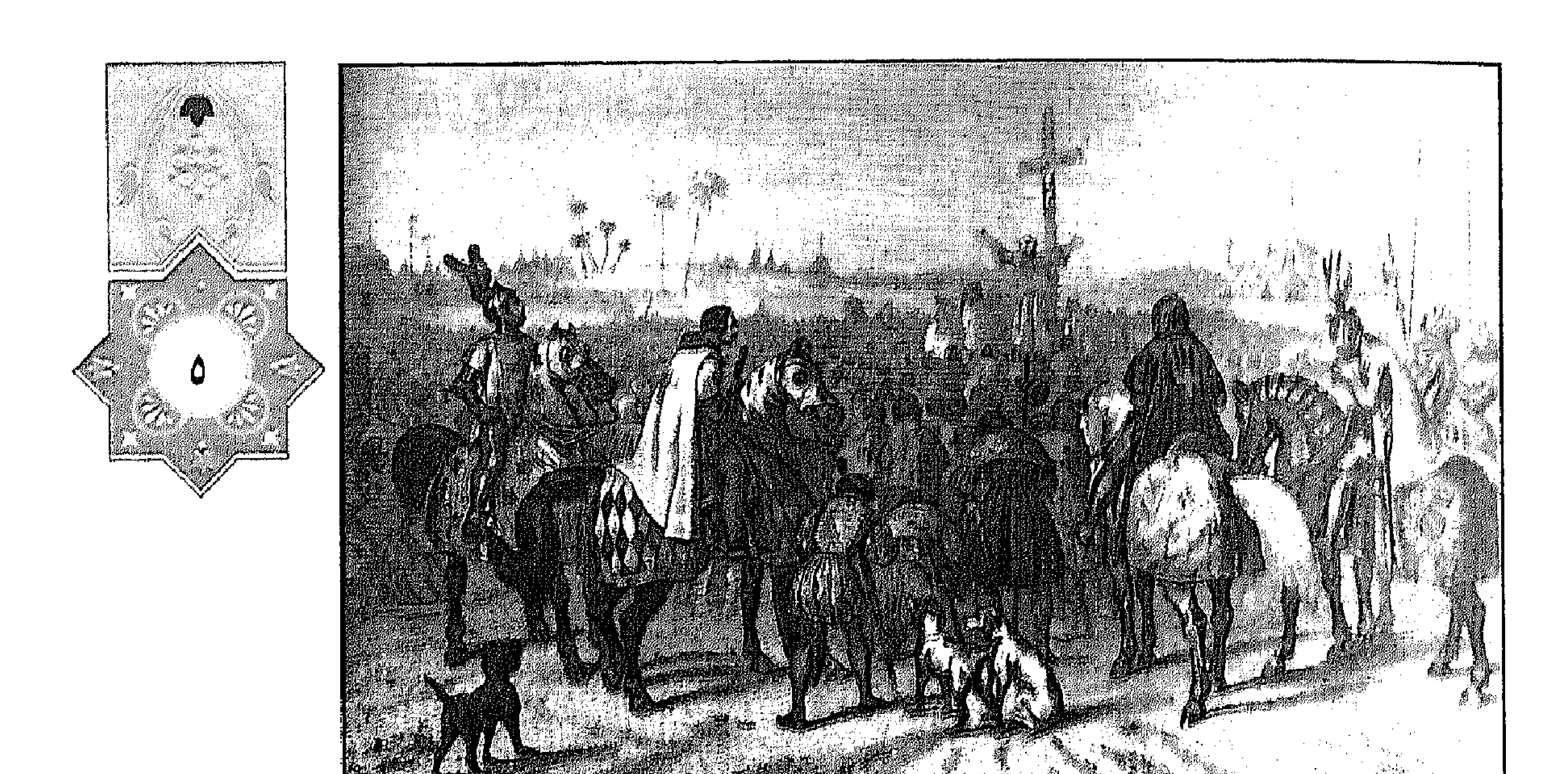


ويعنينا فى المقام الأول ما كان بين عنصر الروم أو البيزنطيين وعنصر الترك فى غرب آسيا، وعنصر الفرنجة فى غرب أوروبا، أما الروم فهم يمثلون بقايا الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية وعاصمتهما القسطنطينية وكانت دولتهم فى عصر الحركة الصليبية تشمل آسيا الصغرى وتمتد حتى شمال العراق وأرمينية فضلاً عن عدة ولايات فى البلقان - ومن الواضح أن الاحتكاك كان أمراً طبيعياً بين الروم - وهم مسيحيون شرقيون يحتضنون رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية فى الشرق، وقبائل الأتراك الذين كانوا مسلمين انتشروا فى العراق وأوغلوا فى آسيا الصغرى والشام وقاموا بحماية الخلافة العباسية فى بغداد حتى دان الخليفة لسيطرتهم وغدا تحت تأثير نفوذهم.

ولم يكتف هؤلاء الأتراك السلاجقة ببسط سيطرتهم على الخلافة العباسية فى بغداد وحماية أراضيها من جيرانها الطامعين فيها، وإنما أوغلوا أيضا فى بلاد الروم حتى وصلوا إلى أطراف آسيا الصغرى غرباً وشرقاً. وفى موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ حلت هزيمة ساحقة بالإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع ووقع أسيرا، مما جعل أباطرة القسطنطينية يطلبون العون من البابوية فى روما على أساس أن الكارثة التى حلت بالإمبراطور البيزنطى وما جرى على الإمبراطورية البيزنطية من أسر إمبراطورها وتدمير جيشها وضياع أرضها، إنما هى كارثة حلت بالمسيحيين على أيدى السلاجقة



حروب السلاجقة مع البيزنطيين



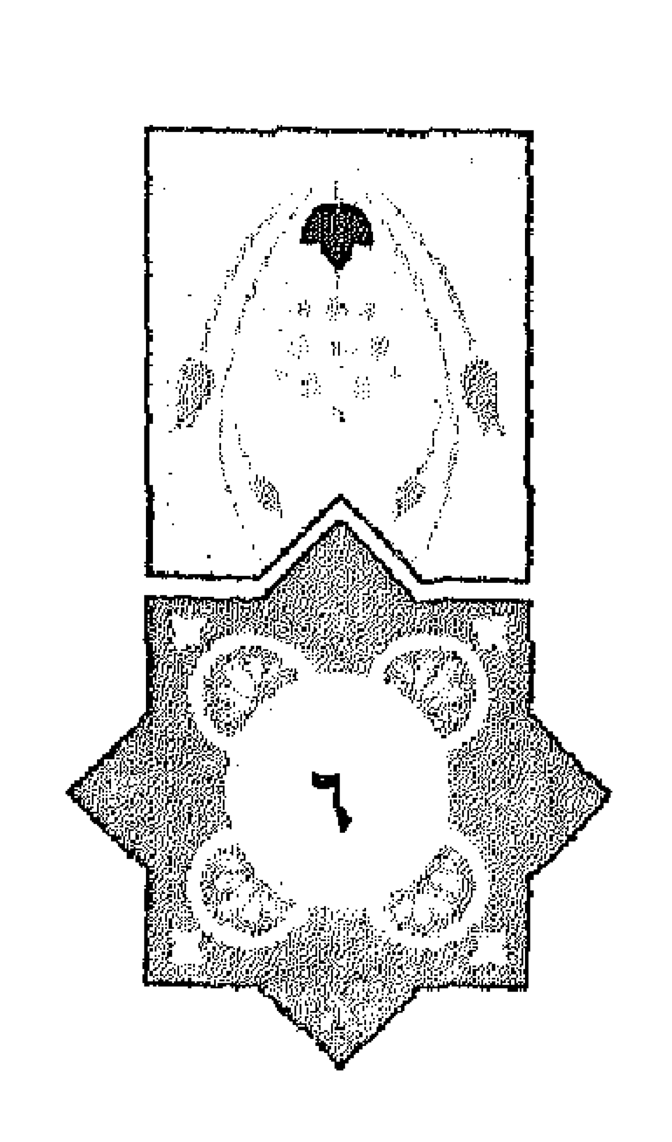
دعوة البابا للحروب الصليبية فى روما

المسلمين، وعلى الرغم مما كان هناك من خلاف بين كنيستى روما الكاثوليكية والقسطنطينية الأرثوذكسية فإن البابوية-لم تقف مكتوفة اليدين، فدعت لمحاربة المسلمين، ولقيت دعوة البابا استجابة من الأمراء وجماهير العوام، وبذلك فتح ملف الحركة الصليبية سنة ١٠٩٥-١٠٩٦.

وهنا نجد أنفسنا أمام عدة حقائق ترتبط بهذه الحركة:

أولاً: تألفت هذه الحركة من دفعات متلاحقة اتخذت من إقليم الشرق الأدنى هدفا ومسرحا. وإذا كان من الممكن اعتبار الحملة الصليبية الأولى نقطة البدء لهذه الحركة(١٠٩٥-١٠٩٦) فإنه من الصعب تحديد النهاية أو المرحلة الختامية لها. إن الروح الصليبية التى تغلغلت فى القلوب منذ قرون كان الصعب اقتلاعها فى بضع سنوات. حقيقة انه تم فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد طرد آخر البقايا الصليبية من ممتلكاتها فى بلاد الشام، ولكن المشاعر الدينية ضد المسلمين ظلت راسخة فى قلوب وعقول نسبة لا يستهان بها من المتطرفين.

ثانياً: من الخطأ القول: إن الحركة الصليبية تعبر عن حروب شنتها المسيحية على الإسلام، وأن العداء بين المسيحية والإسلام يبدو بوضوح فى هذه الحركة. إن الحركة الصليبية فى حقيقة أمرها جاءت تعبيراً عن عداء نسبة معينة من المتطرفين للمسلمين، بمعنى أنها حرب شنها فريق من المسيحيين على الإسلام والمسلمين. ومن يتصفح الكتب السماوية كالقرآن الكريم يجد إشادة كريمة بالمسيح وأمه مريم العذراء، وبالمسيحية حيث وصف الإنجيل-كما أنزل-بأن فيه هدى ونور، ووصف المسيحيين بأنهم أقرب الناس مودة للمسلمين: ﴿ ... **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ** ..(٨٢)﴾ [**المائدة**].

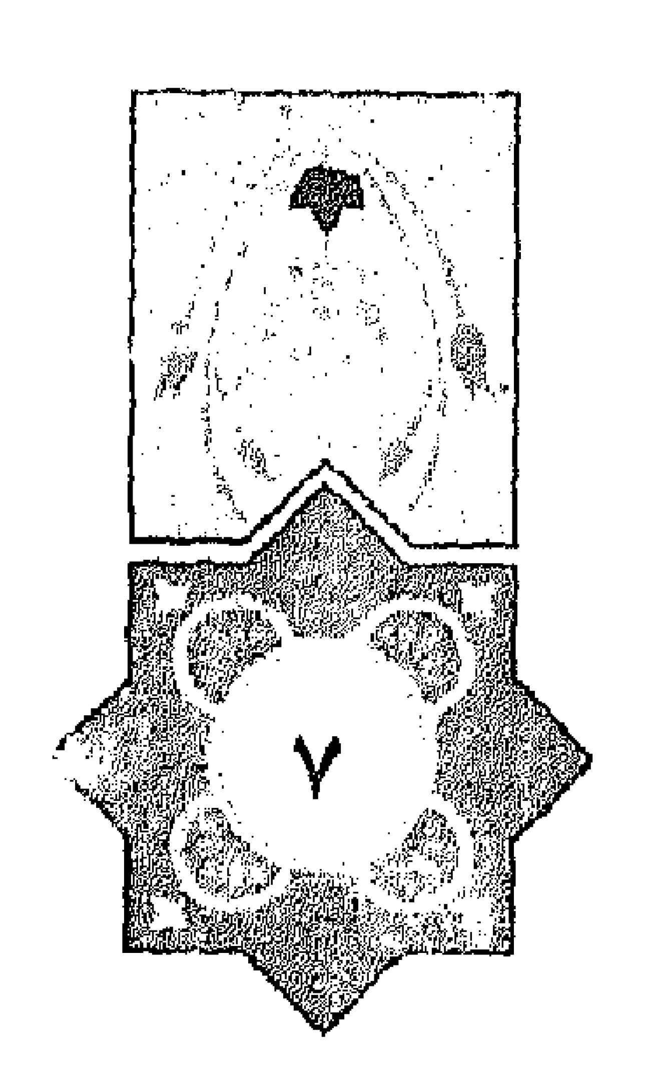


ثالثاً: إذا كان العرف التاريخى قد قسم الحروب الصليبية إلى حملات-تسع فى نظر البعض-فليس معنى ذلك أن هذه الحملات المحددة حسابياً هى وحدها التى انطلقت من ديار المسيحيين لضرب المسلمين تحت ستار استعادة مقدسات المسيحية من أيديهم، هناك حملات صليبية خرجت بين ثنايا الحملات التى ظفرت برقم فى التاريخ، ومع ذلك فإنها فى جدول الحملات الصليبية لم تحظ برقم عددى يكسبها أهمية فى سلسلة الحملات المرموقة.

رابعاً: مع فداحة الخطر الذى هدد الإسلام والمسلمين فى منطقة الشرق الأدنى نتيجة لازدياد الخطر الصليبى يوماً بعد يوم وتوسع الصليبيين على حساب المدن-وأهمها بيت المقدس سنة ١٠٩٩، مع كل ذلك لم ينتبه المسلمون لهذا الخطر المحدق بهم، واستمر التنافس والخلاف سائداً فى صفوفهم: ترك وعرب، سنة وشيعة، خلافتان تتنازعان الزعامة على الجبهة الإسلامية، إحداهما عباسية سنية، والأخرى فاطمية شيعية. . هذا فضلاً عن السلطنة السلجوقية. . حتى برز اسم عماد الدين زنكى-حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقى.

وكان أن أظهر زنكى قدراً كبيراً من الشجاعة والقدرة على العمل، مع قدر كاف من سرعة الإدراك وسلامة الحس؛ ذلك أنه نجح فى الاستيلاء على عدة مدن مثل نصيبين وحران وحلب. وقد لعب زنكى دوره بمهارة ضد منافسيه وخصومه من أمراء المسلمين حينا والصليبيين والروم أحياناً، حتى استطاع أن يتوج جهوده بالاستيلاء على الرها سنة ١١٤٤، وهى أولى الإمارات التى أقامها الصليبيون فى الشرق.

وبعد مقتل زنكى سنة ١١٤٦ اقتسم أبناؤه ملك أبيهم. وبرز من هؤلاء الأبناء نور الدين محمود، الذى اتصف بالحكمة وبعد النظر والقدرة على اختيار أعوانه، ومنذ البداية ثبت نور الدين مركزه فى حلب، ومنها حاول أن ينشر جناحيه شرقاً وغرباً. على أن تجارب نور الدين فى حروبه ضد الصليبيين جعلته يدرك أن الانتصارات التى حققها الصليبيون على حساب المسلمين لا ترجع إلى قوتهم بقدر ما ترجع إلى عدم تماسك المسلمين وتفكك الجبهة الإسلامية. وما زال نور الدين يتحايل ويستخدم أساليب الذكاء والحيلة حتى استولى على دمشق سنة ١١٥٤م مما شكل وضعاً جديداً على مسرح الحروب الصليبية، إذ جاءت هذه الخطوة بداية لإقامة جبهة إسلامية امتدت من إقليم الجزيرة إلى نهر النيل، مما أدى بالكيان الصليبى إلى نهاية محتومة فى الشرق.

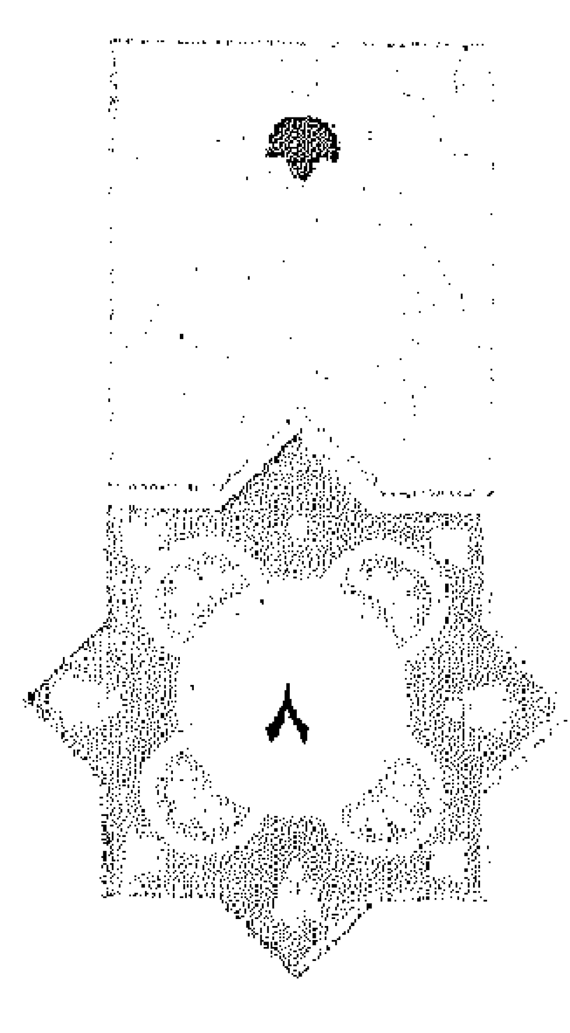


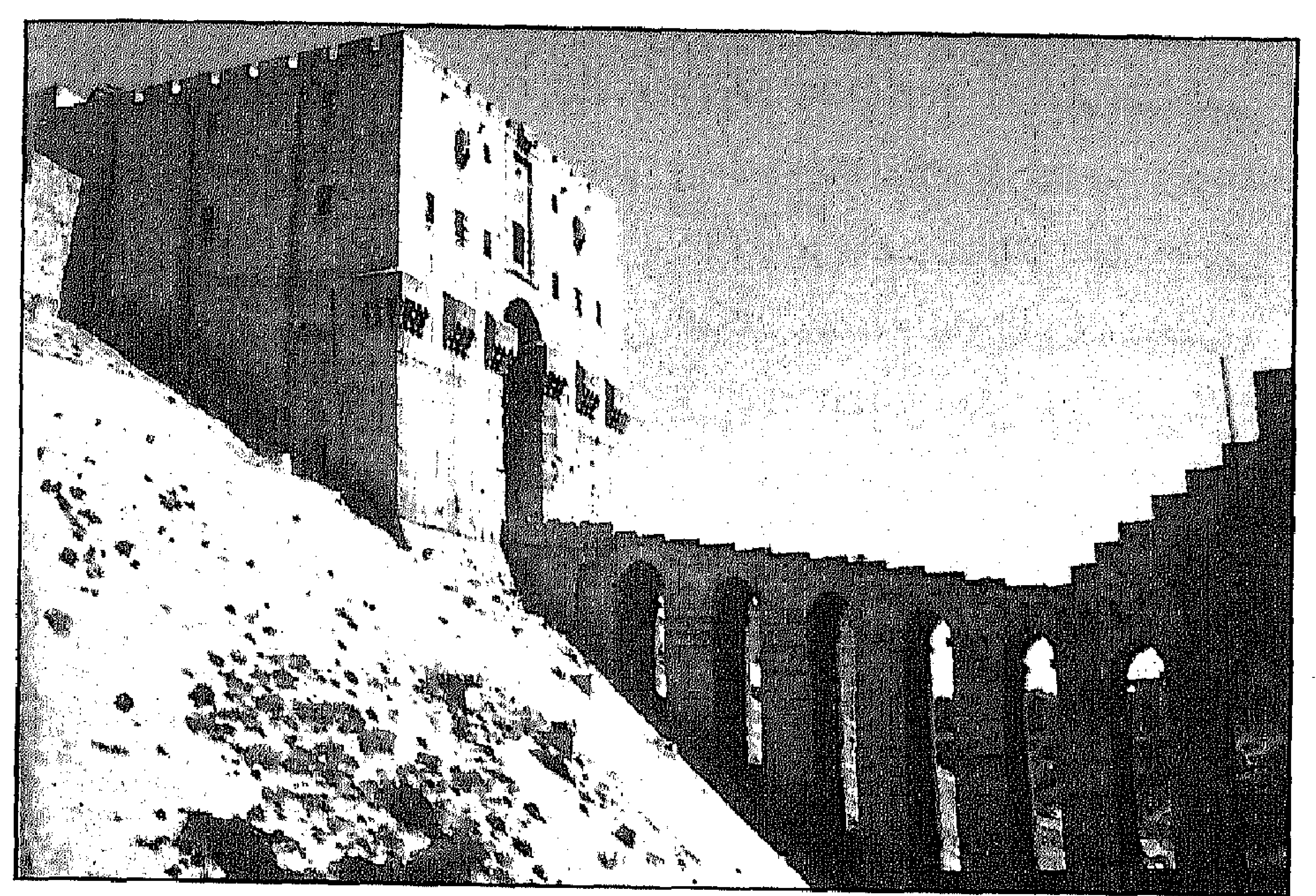
وبالسيطرة على قلب بلاد الشام صارت الخطوة التالية أمام نور الدين هى شق الطريق إلى مصر حتى تتحقق إقامة وحدة إسلامية تمتد من الفرات إلى النيل. وكانت مصر عندئذ-فى الربع الأول من القرن الثانى عشر-تعانى فى أواخر العهد الفاطمى قدراً كبيراً من التفكك وتصدع بناء الدولة الفاطمية، مما شجع بلدوين الثالث-الملك الصليبى فى بيت المقدس-على غزو عسقلان والاستيلاء عليها سنة ١١٥٣م، وكان لهذا العمل وقعه السيئ فى الأوساط الإسلامية، حيث إن هذه المدينة كانت آخر قاعدة يمتلكها الفاطميون فى فلسطين، فإذا بالصليبيين يحولون جامعها الكبير إلى كنيسة تحمل اسم القديس بولس، فى حين وقعت الخلافة الفاطمية فريسة لأطماع الوزراء الذين انتزعوا كل ما للخلافة من نفوذ، وانتهى أمر الخلفاء والوزراء فى كثير من الحالات إلى السقوط قتلى بتدبير منافسيهم، وعبر المؤرخ ابن الأثير عن ذلك بقوله: إن الخلفاء الفاطميين غدوا فى تلك الحقبة-النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلاد«اسماً لا معنى».

وفى منتصف القرن الثانى عشر للميلاد، استبد الوزير طلائع بن رزيك (١١٥٤-١١٦١) بالسلطة وتعيين الخلفاء، حتى أقام فى الخلافة العاضد-آخر الخلفاء الفاطميين-سنة ١١٦٠م، ولم يلبث أن قتل ابن رزيك فخلفه فى منصب الوزارة ابنه العادل الذى لم يبق فى الوزارة سوى خمسة أشهر، انتهت بقتله بتدبير من شاور حاكم الصعيد سنة ١١٦٣. أما الخليفة العاضد الفاطمى فقد وصفته المصادر بأنه كان«مراهقاً قارب البلوغ» فظل ألعوبة فى أيدى الوزراء. وعندما تمادى شاور فى الغى والتسلط على الخليفة والأمراء خرج عليه أبو الأشبال ضرغام الذى تمكن من طرد شاور من مصر سنة ١١٦٣، ولم يكن ضرغام أخف وطأة من سابقيه، فأسرف فى الغطرسة وارتكب كثيراً من المظالم. وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ الملك الصليبى عمورى الأول يفكر ويخطط لغزو مصر.

وكان أن غزا عمورى دلتا النيل سنة ١١٦٣، وأوغل حتى وصل إلى بلبيس وحاصرها، ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان نهر النيل وفتح الترع والقنوات مما أجبر الملك عمورى على الانسحاب والعودة إلى فلسطين. وحسب الملك الصليبى أنه خرج من هذه المحاولة بفكرة عامة عن مدى ضعف الدولة الفاطمية وعجزها عن حماية مصر من أية محاولة لغزوها. هذا إلى أن الصليبيين خرجوا من خلال هذه الحملة بصورة واضحة عن مدى ثراء مصر ووفرة مواردها مما يجعل منها قاعدة قوية للصليبيين فى حالة الاستيلاء عليها.

على أنه ثمة أهمية لهذه الحملة التى قام بها عمورى على مصر، هى أنها أثارت مخاوف نور الدين محمود الذى بادر بشن عدة هجمات على الصليبيين بالشام ليضطرهم على الجلاء عن





قلعة حلب– مقر نور الدين محمود

مـصر. وهكذا أخـذ الموقف يتبلور ليـتخـذ شكل سـباق للفـوز بمصر، بين نور الدين مـحمـود والصليبيين.

هذا من ناحية، ومـن ناحية أخرى-أعنى فيـما يتعلق بالقوى الإسـلامية وما كان يـكتنفها عندئذ من تيـارات، فأهم ما فـيها أن شـاور لجأ إلى بلاط نور الدين فى الشـام مستنجـداً به ضد خصمه ضرغام. وليغرى شاور نور الدين على مـساعدته، فإنه «أطمعه فى الديار المصرية»، وقال له: «أكون نائبك بها، وأقنع بما تعـين لى من الضياع، والباقى لك !!».. وفى حالة مـوافقة نور الدين على إعطاء الوزارة فى مصر لشاور، فإن الأخير تعهد بأن يرفع له ثلث دخل البلاد، ويكون تابعاً له، ينفذ كل ما يأمـر به من تعليمات. وكان معنى ذلك أن يغامر نور الدين مـحمود بإرسال حملة إلى مصر تسيطـر عليها، وبذلك يكتمل بناء الجبهة الإسلاميـة المتحدة فى الشرق الأدنى فى الوقت الذى كان الصليبيون قابعين فى العديد من أنحاء البلاد.

على أن إرسال حملة إلى مـصر لمواجهة العديد من الخصـوم لم يكن بالأمر الهين فى نظر نور الدين محمود؛ ولذا اسـتنفد التفكير فى اتخاذ تلك الخطوة شيـئاً من الوقت والجهد الفكرى، حتى اتخذ نور الدين قراره الحاسم سنة ١١٦٤، وكانت هذه أولى حملات نور الدين على مصر. واختار نور الدين لقيـادة هذه الحملة أسد الدين شيركوه، يرافقه ابن أخ له فى السـابعة والعشرين من عمره اسمه «**صلاح الدين بن أيوب**».

هكذا بـدأ يظهـر نجم صـلاح الدين ليـشق طريقـه فى عالـم مضطرب يفـيض بالحـروب والمنافسـات بين الأمراء والحكام، فضـلاً عن روح العداء بين الصليـبيين والمسلمين، مع اخـتلاف مذاهـب وأصول كل جانب.

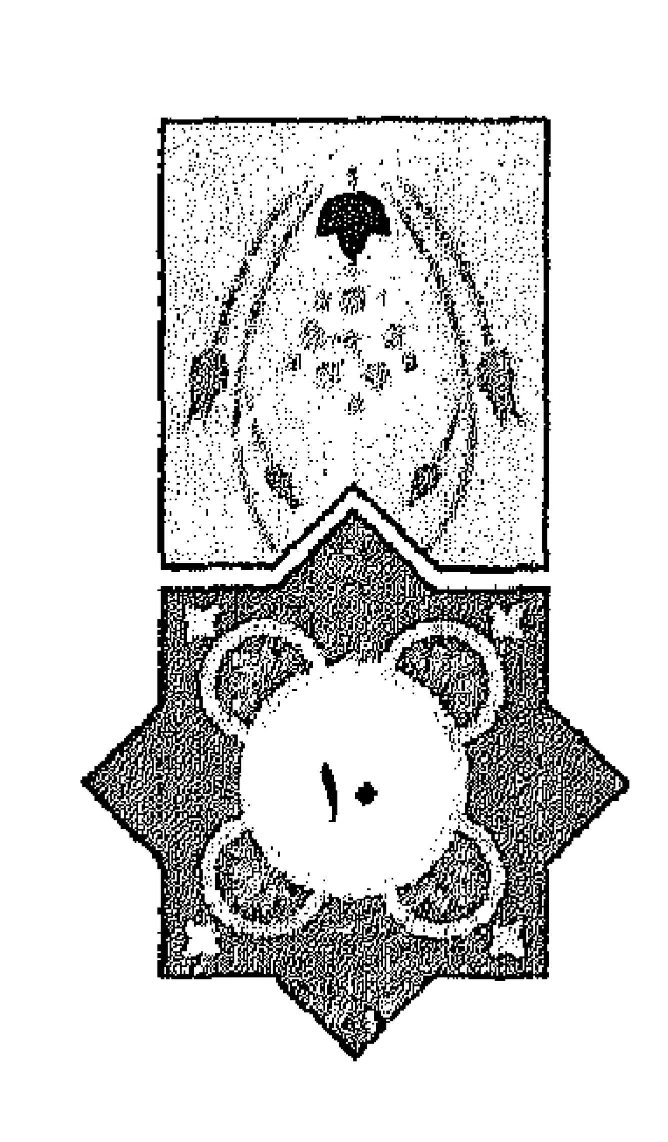


ومهمـا تباينت الآراء حول مدى استعداد المسرح عندئذ لاستقبال رجل مثل صلاح الدين، جمع بين الشجاية وصدق العقيدة وقوة الإيمان، ونفاذ البصيـرة، فإن ظهور صلاح الدين فى تلك الظروف أثار كـثيـراً من المناقـشات حـول أصله وجذوره وجنسيته.

أما عن أصل صلاح الـدين، فإن المصادر تعرضت لعـمـه شيركـوه وأبيه نجم الدين أيوب، فذكر ابن الأثير أن أصلهم من الأكراد وأنهم فخذ من الهـذبانية. هذا فى حـين أنكر جـماعـة من ملوك بنى أيوب نسبتـهم إلى الأكراد وقالوا: إنما نحن عـرب، نزلنا عند الأكـراد وتزوجنا منهم. وهناك من نسـبـوا هذا الأصـل العـربى إلى بنى أمية.

تمثال من الرقة -صناعة الموصل - السلاجقة- العصر الأيوبى

أسوار القاهرة الفاطمية- ويظهر باب النصر ومئذنة الحاكم من بعيد



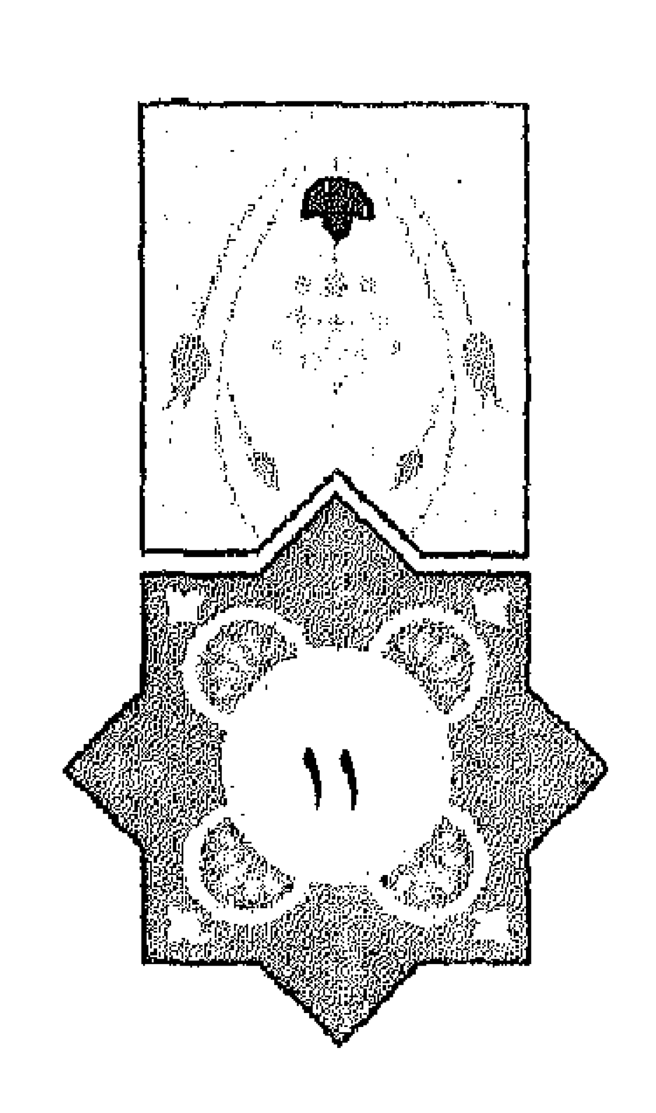
ويبـدو لنا من دراسة واقع الأيوبيـين وسيـرتهم حين ظهـورهم على مسـرح الأحداث أنهم أكـراد الجنس، وأن نسبـتهم إلى أصل عـربى جاءت متأخرة زمنيـاً، ظهرت بعد أن حققوا قدراً من الشهـرة يتفق مع ما صار لهم من مكانة. وقد نسب إلى بهاء الدين بن شداد-مـؤلف سيرة صلاح الدين- أنه أى صلاح الدين عندمـا سمع هذا النسب العربى قـال: «ليس لهذا أصل أصلاً». أما المقريزى-بعد ذلك فى القرن التاسع الهجرى-فقد علق على هذا الأصل العربى بقـوله: «هذه أقوال الفقهـاء لهم-ممن أراد الحظ لديهم لما صار الملك إليهم».

وكان أسـد الدين شيركـوه وأخوه نجم الدين أيوب من أهل مدينة دوين قـرب خلاط، من مدن أرمـينية. ثم انتقـلا إلى العراق حيث صـارت لنجم الدين أيوب مكانة رشحـته للولاية على تكريت. وبعد أن أقام الأخوان فى «تكريت» فترة من الزمن غادراها وكان ذلك فى نفس الليلة التى شهدت مـولد صلاح الدين. واتجه الأخوان نجم الدين أيوب وشيـركوه إلى الموصل، حيث رحب بهما عـماد الدين زنكى، حتى إذا مـا فتح عماد الدين زنكى بعلبك، عـين نجم الدين أيوب واليا عليهـا، فاسـتمر فى ولايتـه إلى أن قتل عـماد الدين زنكى سنة ١١٤٦ وخلفـه ولداه نور الدين ومحمود فى حلب وسـيف الدين غازى فى الموصل. أما أسد الدين شيركوه فـقد دخل فى خدمة نور الدين محمود صاحب حلب، وحظى لديه بمكانة مرموقة.

ثم كان أن أخذ نور الدين محـمود يعمل لبناء الجبهة الإسلامية المتـحدة، فتطلع إلى دمشق ليحكم بناء هذه الجبـهة فى بلاد الشام. ولتحقيق ذلك فكر فى الاسـتعانة بنجم الدين أيوب الذى كان عندئذ قد استقر فى دمشق. وكان أن تمت هذه الخطوة بنجاح، وبذلك جاء دور مصر لتكتمل الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل.

وكان أن عهـد نور الدين مـحمود إلى قائده شيركـوه بالخروج على رأس حملة سنة ١١٦٤ لمساندة شاور ضد ضرغـام من ناحية، وحماية مصر من أطماع الصليبيـين من ناحية أخرى، وقد ضم هذا الجيش صلاح الدين وشاور، الأمـر الذى أزعج ضرغام فأسرع بالاستنجـاد بالصليبيين. وتطورت الأمور بسرعة، إذ تمكن شيركوه من اجتياز صحراء مصر الشرقية بسرعة رغم تقدم سنه، وتمكن من إنزال الهزيمـة بالقوات المعادية، ولم تحل سنـة ١١٦٤ إلا وكان شيركـوه قد وصل إلى أسوار القاهرة. أما ضرغام فقد قتل أثناء محاولته الفرار، فى حين تولى شاور الوزارة.

وهناك شبـه إجماع من المـؤرخين على أن شاور كـان سفاكـاً للدماء، عسـوفاً فى مـعاملة الناس، فتنكر لشيركوه، بل إنه لم يتردد فى طلب العـون من الصليبيين. وهكذا عاد عمورى إلى مصر مرة أخرى على رأس جـيشه، ولكن الموقف انتهى بأن غادر شيركـوه وعمورى الأول مصر،

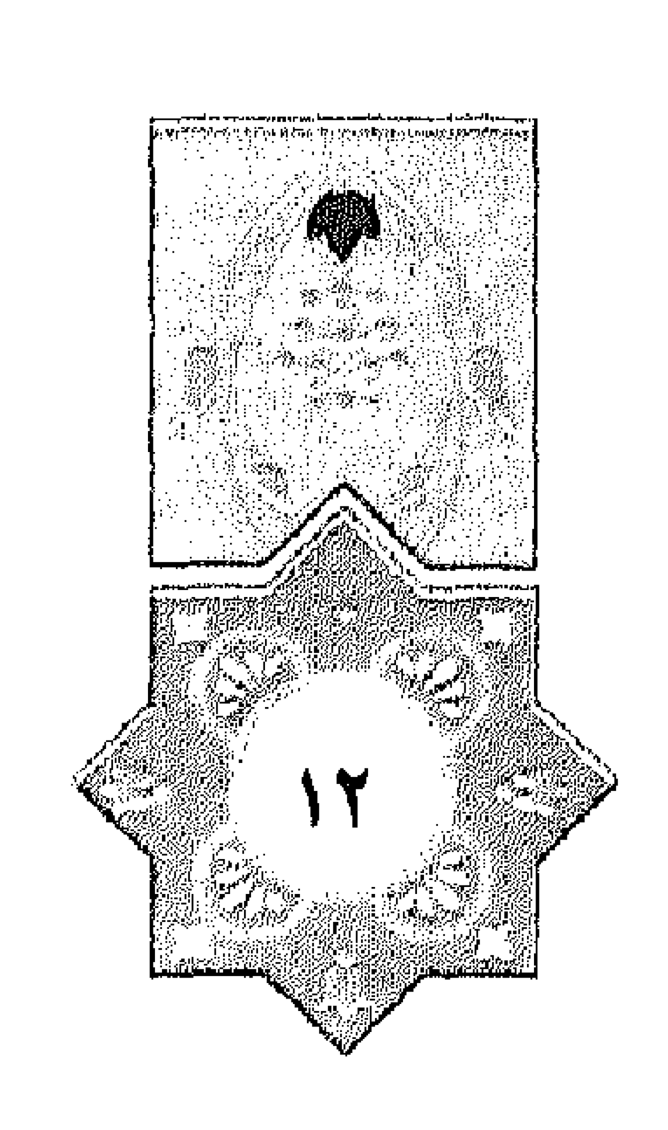


ذلك فى أواخر سنة ١١٦٤، وكان الملك الصليبى عمورى الأول متلهفاً على عقد هذه الاتفاقية نظراً لاشتداد هجمات نور الدين على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام أثناء تغيب الملك الصليبى فى مصر.

ومهما يكن من أمر هذه الحملة، فإن نور الدين من جهة والصليبيين من جهة أخرى غادروا مصر وهم على يقين بأن هذه البلاد ذات أهمية كبيرة لمن يسيطر عليها نظراً لثروتها وموقعها مع ضعفها. وقد ورد فى المصادر أن شيركوه غادر مصر «فأقام فى الشام مدبراً لأمره مفكراً فى كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية». وفى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نحكم بأنه لو ترك الأمر لشيركوه لما غادر مصر أو عاد إليها فى سرعة عقب خروجه منها، ولكن نور الدين محمود كان حريصاً فى تصرفاته، يعمل حساباً لأعدائه. ومع ذلك فإن نور الدين ظل يرقب الفرصة ليبادر غزو مصر مرة أخرى، حتى إذا ما كانت سنة ١١٦٧ اتخذ قراره تلبية لنداء الخليفة العاضد الفاطمى، الذى أرسل إلى نور الدين يستنجده ضد شاور. وفى هذه المرة الثانية لغزو مصر، اصطحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين-مثلما فعل فى حملته الأولى سنة ١١٦٤. وكان أن استنجد شاور بملك بيت المقدس الصليبى-عمورى الأول- الذى أسرع بغزو مصر للمرة الثالثة من جانبه. ويبدو أن الجيش الصليبى بقيادة عمورى كان كبيراً، مما دفع شيركوه إلى الاتجاه نحو الصعيد يصحبه صلاح الدين وهناك فى موقعة البابين قرب الأشمونين بالمنيا، حلت الهزيمة بالجيش الصليبى، وان كانت المعركة غير حاسمة، فانسحب عمورى ليعسكر قرب الفسطاط، فى حين اتجه شيركوه شمالاً ليحتل مدينة الإسكندرية. ثم عاد فخشى أن يحاصره عمورى فى الإسكندرية، فعاد واتجه إلى الصعيد، وترك مهمة الدفاع عن الإسكندرية لابن أخيه صلاح الدين.

وهكذا قدر لصلاح الدين أن يتحمل عبء الحصار الصليبى لمدينة الإسكندرية، فأرسل إلى عمه يطلب المعونة العاجلة للدفاع عن المدينة مما اضطر شيركوه إلى العودة شمالاً سنة ١١٦٧. وكما حدث فى المرة السابقة، انتهى الموقف-باتفاق بين الطرفين على أن يغادر الجميع مصر. وبذلك قدر لشاور أن ينعم بمصر من جديد.

ومن الواضح أن الصليبيين الذين تكرر غزوهم لمصر تم جلاؤهم عنها عدة مرات، «اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها». ومن ناحية أخرى فإن عودة الصليبيين مرة بعد أخرى دون أن يردعهم رادع أنزل الضرر بأهل البلاد، فحكموا على المسلمين حكما جائراً وركبوهم بالأذى». وأمام موجة الغضب التى عمت المحيط الإسلامى اضطر شاور إلى أن يبدل سياسته، فاتصل بنور الدين طالباً العون للخلاص من الهيمنة الصليبية. وتأكيداً لحسن العلاقة عرض شاور أن يتزوج ابنه-الملك الشجاع-من أخت صلاح الدين أو يتزوج صلاح الدين من ابنة شاور.

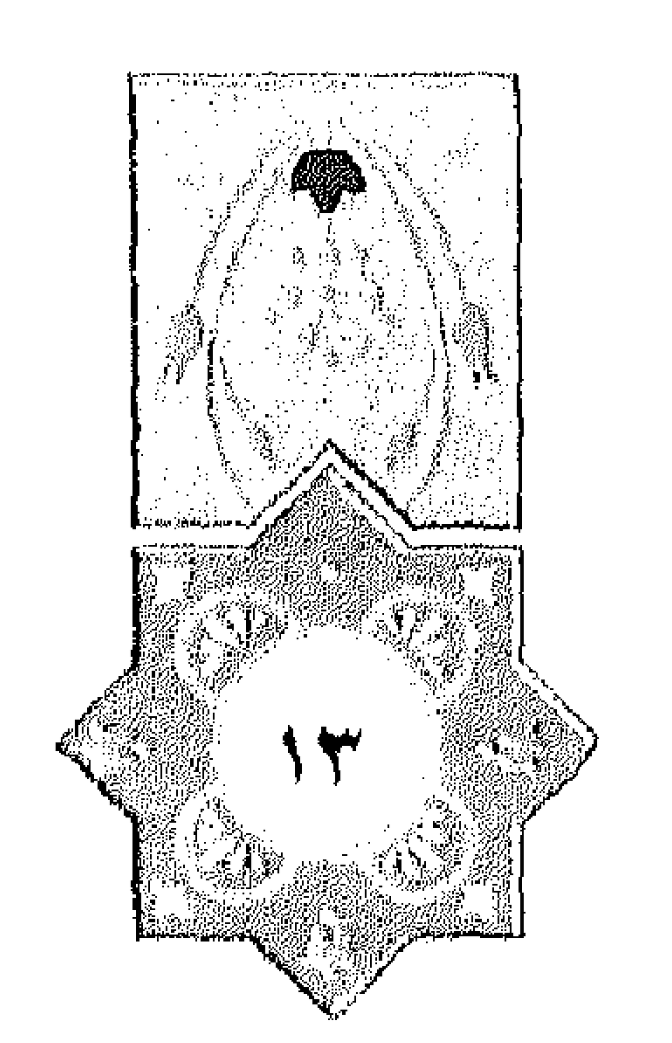


على أن جمهرة الأمراء الصليبيين لم يشاركوا ملكهم عمورى فى سياسته التى اتصفت بالبرود إزاء غزو مصر، فاضطر الملك عمورى إلى الخروج على رأس جيشه، وعندئذ استنجد الخليفة الفاطمى بنور الدين الذى كان لا يمكن أن يسمح بسقوط مصر فى أيدى الصليبيين.

ويعنينا فى تفاصيل هذه الحلقة من حلقات الصراع بين نور الدين والصليبيين أن قائدها شيركوه اصطحب معه أيضاً ابن أخيه صلاح الدين. وهنا تحرص المصادر على تأكيد موقف صلاح الدين الرافض للعودة إلى مصر بعد ما لاقاه من شدائد وأخطار على أرض مصر فى المرات السابقة. من ذلك ما يرويه المؤرخ ابن الأثير أن صلاح الدين قال لعمه شيركوه: «والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً». ولكن نور الدين أصدر إليه أمراً قاطعاً-وفق ما يرويه أبو المحاسن-وقال له: «اخرج مع عمك أسد الدين». ويبدو لنا أن المؤرخين بالغوا بعض الشيء فى هذه الرواية ترويجاً لفكرة شاعت هى أن الإنسان كثيراً ما يتحمس لقبول فكرة فيها ضرره أو العكس؛ وكيف أن صلاح الدين كان متخوفاً من العودة إلى مصر وهو لا يدرى أن فى ذلك مجده ورفعته وعلو صيته فى الآفاق.

وسواء أتى صلاح الدين صحبة عمه شيركوه إلى مصر سنة ١١٦٨ كارهاً أو راغباً، فإن الملك الصليبى عمورى الأول عندما رأى التفاف أهل مصر حول شيركوه، اضطر إلى الانسحاب من مصر على رأس جنوده، فى حين كافأ الخليفة العاضد الفاطمى شيركوه بأن خلع عليه خلعة الوزارة، ولقبه بلقب المنصور، على أن القدر تدخل بعد شهرين، فمات شيركوه فى مارس ١١٦٩، وعندئذ خلفه صلاح الدين فى الوزارة، وهو فى الحادية والثلاثين من عمره.

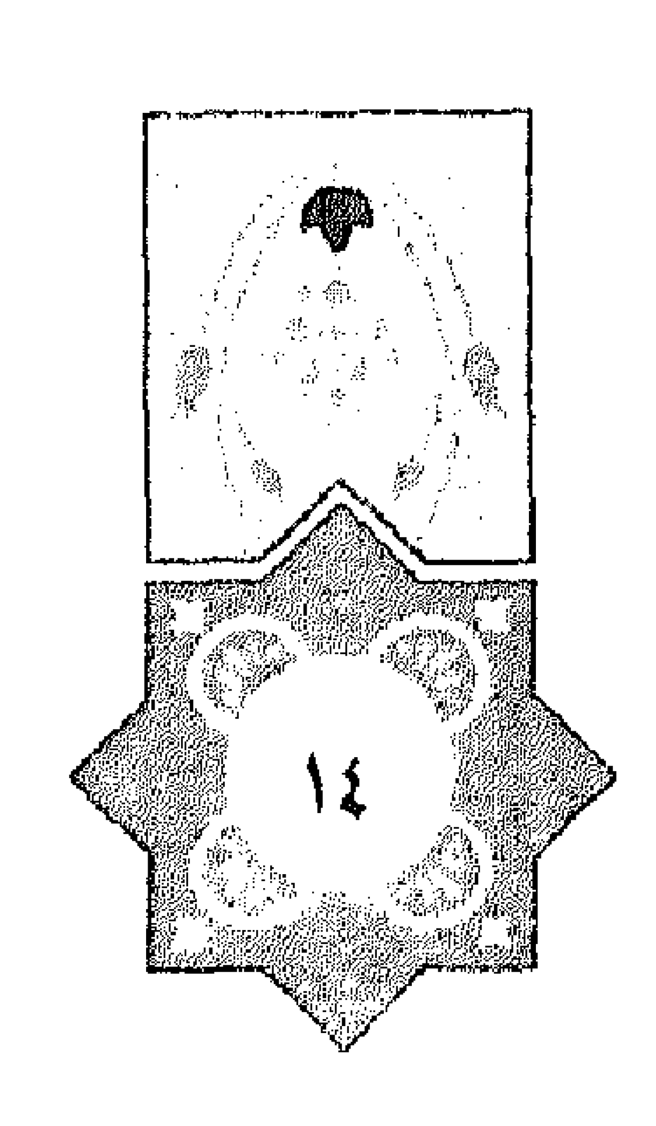
ولم يكن اختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة عن رضى منه، إذ كانت الأوضاع القلقة فى المنطقة، والمشاكل التى تعانى منها الدولة الفاطمية، وسوء حال الخلفاء الفاطميين الذى أدى بكثير منهم إلى سوء الخاتمة.. كل ذلك جعل منصب الوزارة فى الدولة الفاطمية فى تلك المرحلة غير مرغوب فيه. وتشير مصادر التاريخ إلى أن صلاح الدين تمنع فعلاً عن قبول منصب الوزارة، ولكنه«ألزم به، وأحضر إلى القصر، وخلعت عليه الوزارة». ويبدو أن الخليفة العاضد الفاطمى تخوف من طموح بقية الأمراء فى جيش شيركوه، فى حين لمس«ضعف صلاح الدين، وعلم أنه إذا ولى وليس له عسكر، ولا رجال، كان تحت يده وحكمه ولا يجسر على المخالفة..». وهذا ما عبر عنه أصحاب الخليفة المقربون إليه، عندما همسوا فى أذنه«ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف (صلاح الدين)، والرأى أن يتولى (الوزارة)، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا». ولكن صلاح الدين يوسف امتنع وضعفت نفسه من هذا المقام فى تلك الأجواء الشائكة، مما دفع



أحد المؤرخين المعاصرين إلى القول: «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل!!». وكان أن حدث ما ليس فى الحسبان، إذ اعتلى صلاح الدين يوسف منصب الوزارة فأثبت لمعاصريه أنه -وهو الشاب الحديث السن- أبعد نظراً وأقوى عزيمة وأوسع فكراً. وقد بلغ من أهمية اعتلاء صلاح الدين منصب الوزارة أن بعض المؤرخين مثل ابن واصل اعتبر هذا الحدث «ابتداء الدولة الأيوبية». بل لقد علق على تلك الأحداث بقوله: «ولما ملك الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب، مصر. .» ذلك أنه بدأ بالعمل على استمالة جماهير الناس إليه، واستغل الأموال التى كان عمه شيركوه قد جمعها ليشترى بها تقدير الشعب والعامة «فمال الناس إليه وأحبوه وضعف أمر العاضد (الخليفة)». ولم ينس صلاح الدين فى تلك المرحلة أن يتقرب ويجزل العطاء للجند والعسكر -الشامى والفاطمى- «فأحبوه وأطاعوه». وجاء ذلك فى الوقت الذى أمده نور الدين بقوة جديدة من العسكر، فيها شمس الدين توران شاه ابن أيوب، أخو صلاح الدين. وهكذا «ثبتت قدم الملك الناصر صلاح الدين فى الملك، ورسخ حكمه. والخطبة مع ذلك على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد، وبعده للملك العادل نور الدين. فالملك فى الظاهر له (للخليفة) ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره. .».

وبهذه الخطوات التدريجية أخذ صلاح الدين يمكن لنفسه ويدعم مركزه كوزير للخليفة العاضد الفاطمى. ولكن هناك قوة ظلت قائمة تحمى كيانه تحت ستار الخلافة الفاطمية التى كانت تتخبط وهى تعانى سكرة الموت، ونعنى بها قوة الجند السودان الذين شكلوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة العاضد فى الحفاظ على كيانه؛ ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة -وهو مؤتمن الخلافة من الجند السودان- "كان متحكماً فى القصر". وقد تخوف من ازدياد نفوذ صلاح الدين، عندما «ثقلت وطأته على أهل القصر»؛ لذا فكر فى التخلص منه، فاتصل سرا بالصليبيين وأرسل إلى ملكهم عمورى الأول ليأتى إلى مصر، فإذا خرج صلاح الدين للقائه انقض المتآمرون على رفاقه بالقاهرة. ولكن رسالة مؤتمن الخلافة إلى الملك الصليبى وقعت فى يد صلاح الدين الذى أدرك خطورة هذا الاتجاه، ورأى أن يستأصل الشر من جذوره، فقتل مؤتمن الخلافة، وأبعد جميع الخصيان السودان عن قصر الخلافة الفاطمية. وعندما تجمع السودان وقاموا بثورة فى

زى الفارس الأيوبى



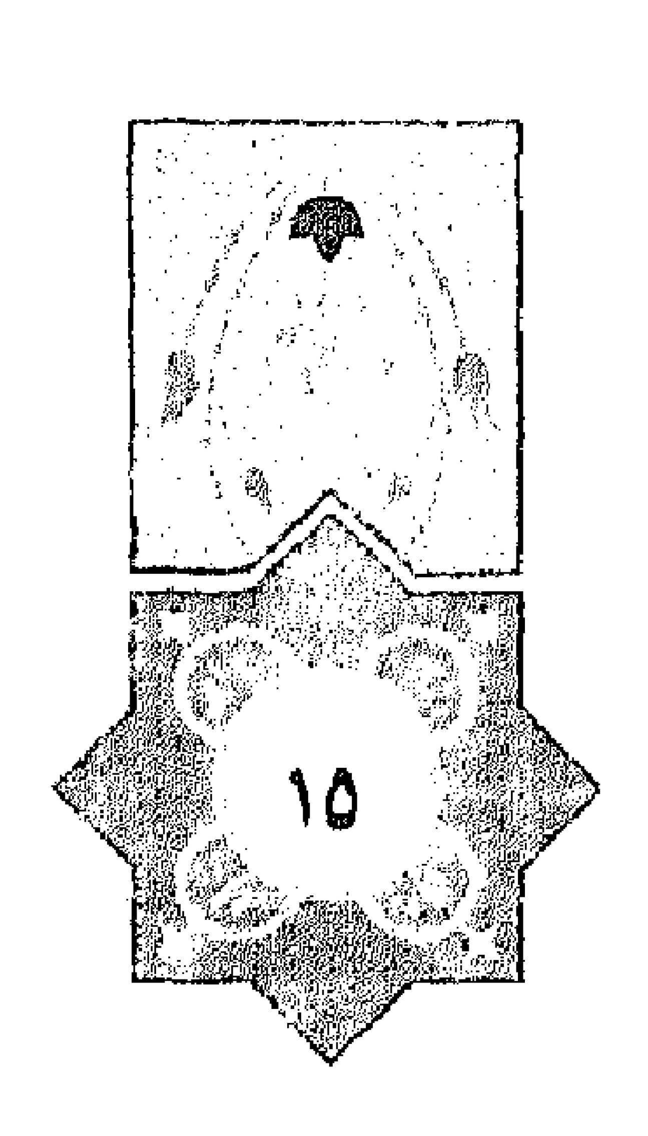
الفسطاط والجيزة (سنة ١١٦٩) طاردهم توران شاه بن أيوب-أخو صلاح الدين- "وأبادهم بالسيف" . كذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الفاطمى من الأرمن، فقضى عليهم وعلى بقايا عناصر الخيانة التى تحالفت ضده.

وجدير بالذكر أن صلاح الدين قام بتلك الأعمال فى هذه المرحلة بوصفه نائباً عن نور الدين، لا باسم الخليفة الفاطمى بوصفه وزيراً له. والواقع أن صلاح الدين كان لا يمكنه أن يستغنى عن معونة سيده نور الدين فى التغلب على الصعاب والأخطار والمشاكل التى واجهته.

وهناك جبهة أخرى كان صلاح الدين لا يستطيع إغفالها هى الجبهة الصليبية، والواقع أن صلاح الدين فى تلك المرحلة كان ينظر بإحدى عينيه إلى الداخل وبالعين الأخرى إلى الخارج؛ ذلك أن الصليبيين كان لا يمكنهم السكوت على توحيد مصر والشام تحت زعامة نور الدين محمود؛ لأن معنى ذلك وقوع الجبهة الصليبية فى بلاد الشام بين فكى الكماشة. وقد عبر المؤرخ ابن واصل عن ذلك بقوله: «ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية.. أيقن الفرنج بالهلاك..». وتحت تأثير هذا الخطر أرسل الملك الصليبى عمورى الأول- ملك بيت المقدس- سفارة إلى غرب أوروبا تطلب من الأباطرة والملوك المبادرة بإرسال حملة صليبية جديدة تنقذ الكيان الصليبى فى الشرق، على أن مشاكل الغرب الأوروبى عندئذ حالت دون تلبية هذا النداء على وجه السرعة. ولم تنجح الحملة البرية البحرية التى حاول فيها الصليبيون الاستيلاء على دمياط (١١٦٩-١١٧٠).

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يراقب الخطر الصليبى بإحدى عينيه، حرص على أن ينظر إلى الجبهة الإسلامية بالعين الأخرى، فاتجه نحو العمل على إزالة الشقاق المذهبى بين المسلمين فى بلاد الشرق الأدنى، وذلك باستئصال الوجود الفاطمى الإسماعيلى؛ ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت فى مصر والشام تمثل خطراً على نور الدين محمود، وهو الحاكم السنى صاحب العلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية- زعيمة جبهة أهل السنة فى ذلك العصر. ولم يكن صلاح الدين- وهو الزعيم السنى الشافعى المذهب- أقل إحساساً بخطر الوجود الفاطمى؛ ولذا دعم أهل السنة بالمال لإنشاء المدارس والمؤسسات. أما الخليفة الفاطمى العاضد، فكان ينظر إلى صلاح الدين ويراقب سياسته، دون أن يستطيع معارضته بعد فوات الأوان.

على أنه يبدو أن صلاح الدين كان متخوفاً من فكرة إسقاط الخلافة الفاطمية. ولا يستبعد أن يكون صلاح الدين قد رأى فى بقاء الخلافة الفاطمية- ستاراً يحميه من سيده نور الدين الذى أخذت نظرته إلى صلاح الدين تتسم بمسحةٍ من الخوف والحسد. ذلك أن مخاوف نور الدين من

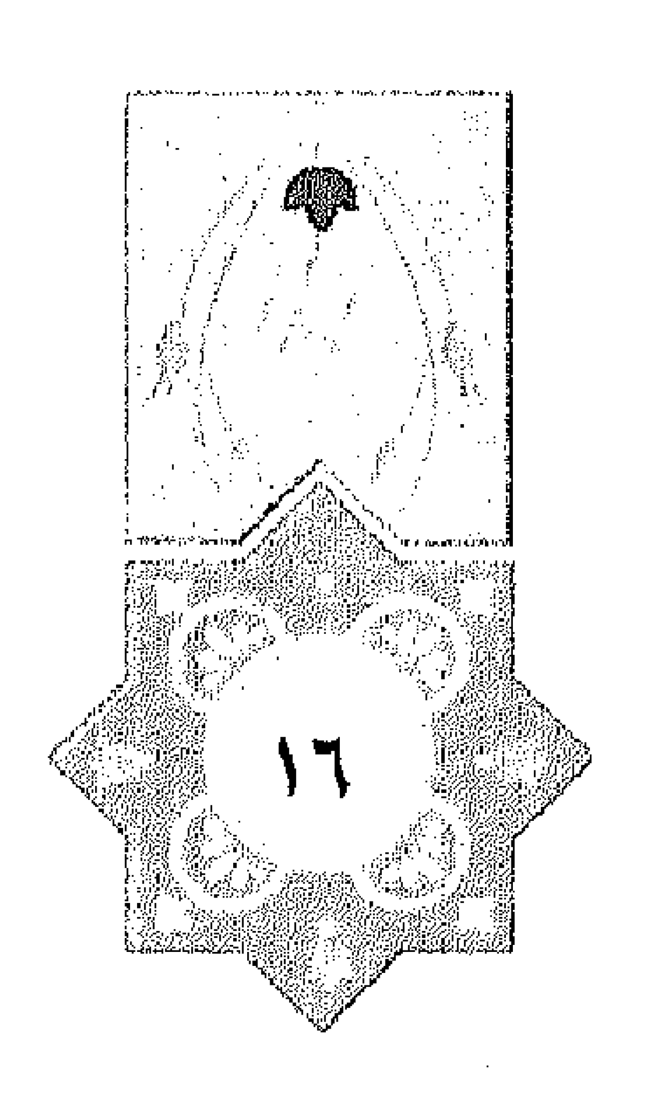


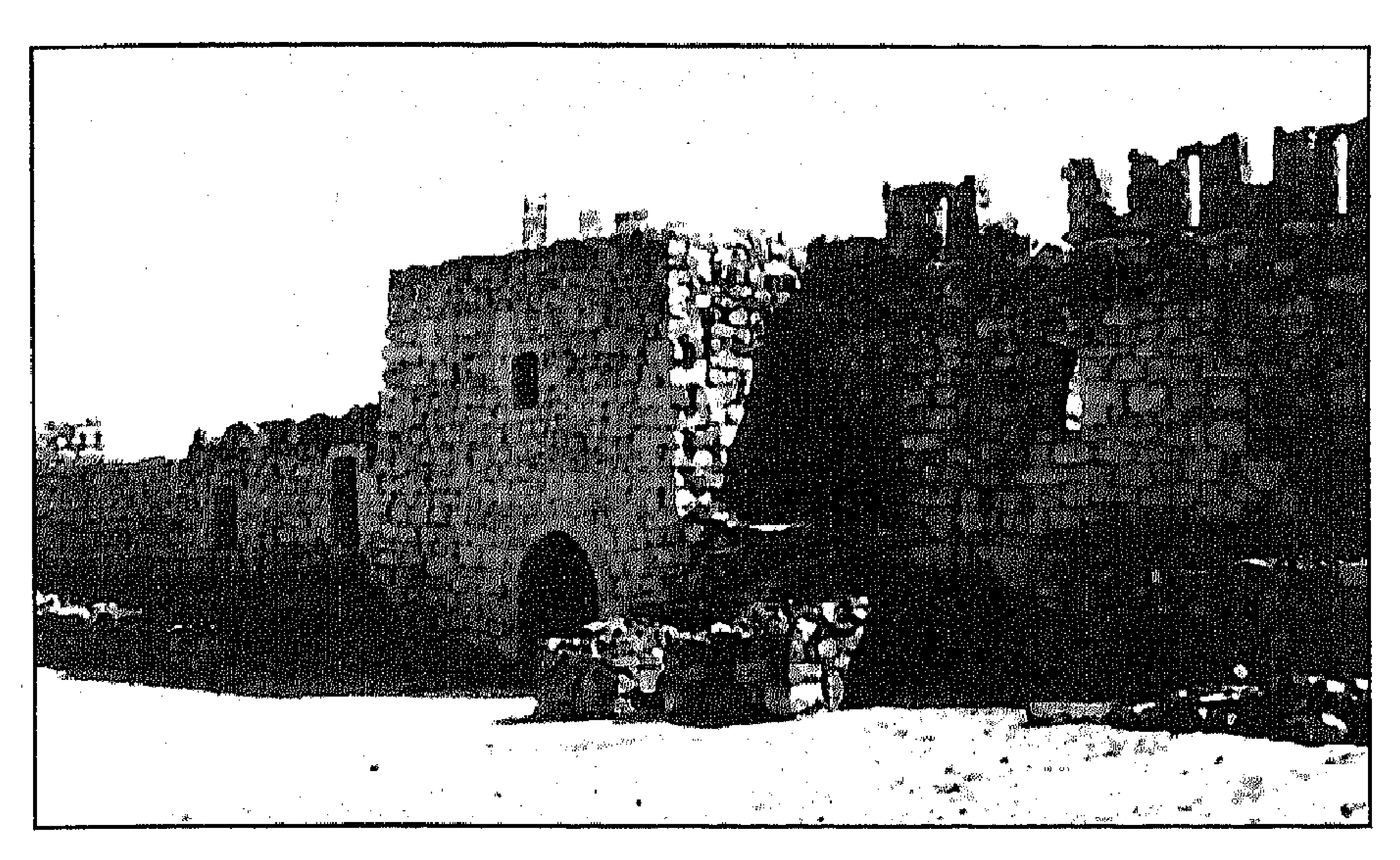
ازدياد نفوذ صلاح الدين أخذت فى ازدياد، وهذا ما عبر عنه المؤرخ ابن الأثير بقوله: «وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لـهم (للفاطميين) ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين، فإنه كان يخـافه أن يدخل إلى الديار المصـرية يأخذها منه، فكان يريد أن يكون العاضد (الخليفة الفاطمى) معه، حتى إن قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه». ومهما يكن فى هذا الرأى من مبالغة، فإنه يمثل وجهة نظر سجلها التاريخ.

وكان أن تكررت مـحاولات نور الدين مـحمود لحـمل صلاح الدين على إسـقاط الخـلافة الفاطميـة- والدعوة للخلافة العـباسية، وفى كل مرة يعـتذر صلاح الدين عن تلبيـة تلك الرغبة. وأخيـراً- فى صيف سنة ١١٧١- أرسل نور الـدين إنذاراً لتابعـه صلاح الدين يأمره بـإحلال اسم الخليفة العباسى المستضىء محل اسم الخليفة العاضد الفاطمى فى خطبة الجمعة، "وأرسل إليه يلزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فـيه". ولم يكن صلاح الدين عندئذ مستعداً للدخول فى مـواجهة مع سيده نور الدين، فتم الانقلاب فى سبـتمبر سنة ١١٧١ عندما دعا فى أول رجب سنة ٥٦٧هـ (سبـتمبر ١١٧١) للخليفة الـعباسى المستضىء، وهكذا تم التـحول رسمياً من المذهب الـشيعى إلى المذهب السنى، دون أن "ينتطح فيـه عنزان" على قول المؤرخ ابن الأثير. وبذلك يكون قـد مر على انقطاع الخطبة للخليـفة العباسـى فى مصر نحو مـائتى سنة وتسع سنين (٣٥٨-٥٦٧هـ) وفى تلك الأثناء سمع صلاح الدين بأن الخلـيفة الفاطمى العاضـد مريض، وأن المرض اشتد به، فأمـر رجاله بعدم إزعاجـه، حتى أدركه الموت بعـد ثلاثة أيام من حدوث الانقلاب. ويقـال: إن صلاح الدين أبدى ندمه عندما علم بموت الخليفة الفاطمى، وقال "ليتنى صبرت حتى يموت !!".

ومن ناحية أخرى، فإن صلاح الدين لم يكد يسمع بوفاة الخليفة الفاطمى، حتى عمل على إزالة معـالم الدولة الفاطميـة "وقطع دابرها، ومحو آثارها". ولم تلبـث أن أقيمت الاحتـفالات- وبخاصة فى بغداد- تعبيراً عن شعور الفرح بعودة السيادة للمذهب السنى فى البلاد التى كانت تتبع الفاطميين، فى حـين سارع الخليفة العباسى المستضـيئ بإرسال الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين ومعها الأعلام والرايات السود شعار العباسيين.

هكذا أخذ صـلاح الدين- خلال السنوات القليلة التى قضاهـا فى مصر (١١٦٩-١١٧١م) وزيرا للخليفة الفاطمى- أن يدعم مركزه ويثبت أقدامه، حتى غدا الرجل الثانى فى مصر من ناحية المنصب والرجل الأول من ناحية النفوذ والـسلطان. ولكن تبقى حقيقة كبرى لا مـفر من الاعتراف بها، هى أن صلاح الدين كان تابعاً لسيده نور الديـن محمود الذى ظل قابعاً فى بلاد الشام يرقب حركات صلاح الدين بعين القلق، وينظر إلى ازدياد نفوذ صلاح الدين فى مصر نظرة لا تخلو من الإحساس بسوء العاقبة.

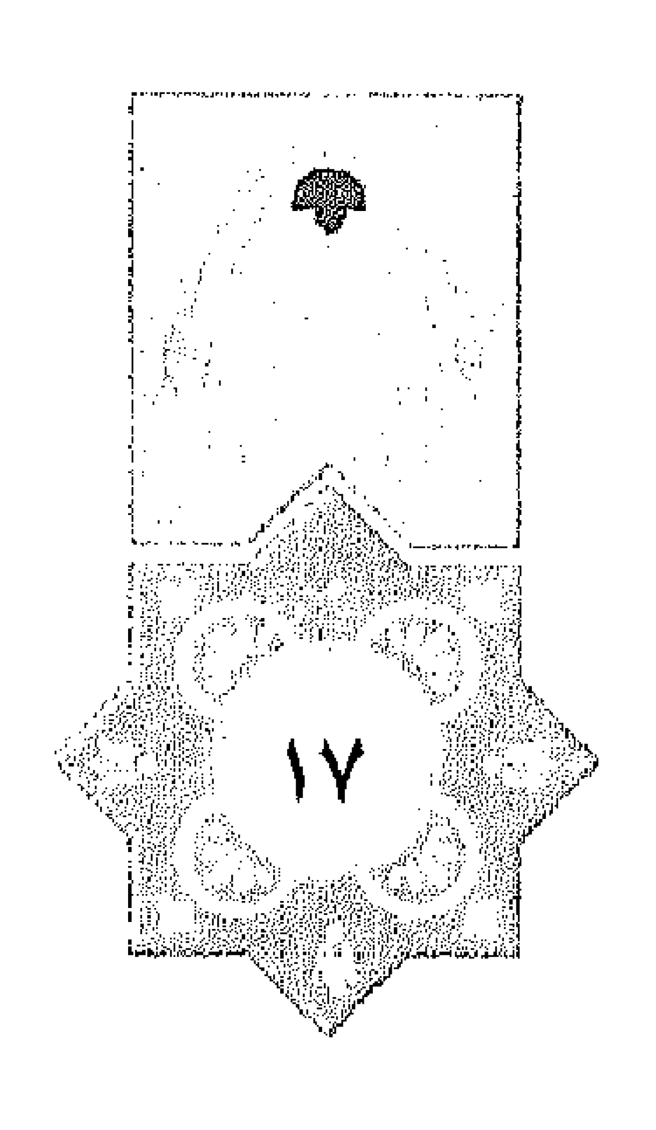


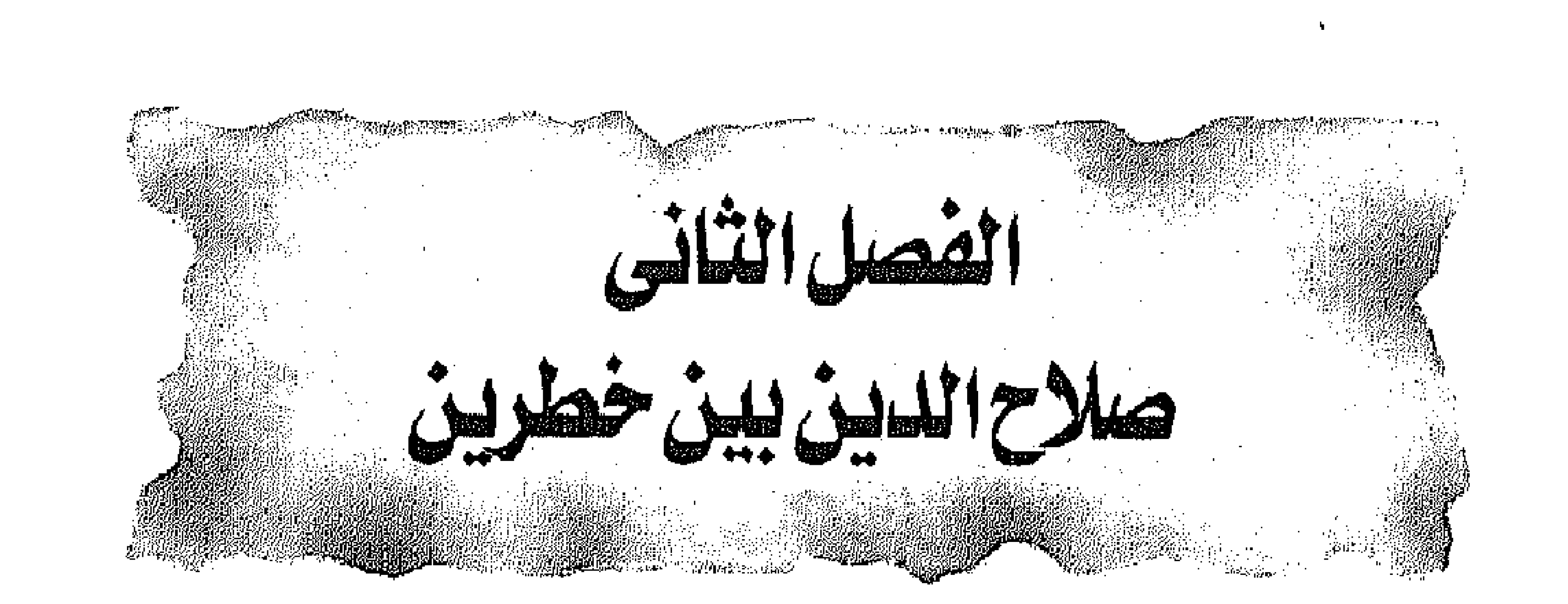


حصن الكرك

وفى ذلك الموقف الحرج كان على صلاح الدين أن يحدد موقفه من سيده نور الدين، إما إعلان الولاء والطاعة، والامتثال لكل ما يصدره نور الدين من أوامر، حتى ولو كانت هذه الأوامر تتطلب انسحاب صلاح الدين من مصر والعودة إلى الشام؛ وإما الخروج عن طاعة نور الدين وإعلان استقلاله بمصر بعد أن بذل فيها من الجهد ما جعله يشعر ويحس أن حكم مصر صار له وليس لأى إنسان آخر.

وكان أن اختار صلاح الدين أن يسلك الطريق الأخير؛ ذلك أنه رأى بعينيه وخبر بنفسه ما عليه مصر من مكانة وثراء، وما بذله هو نفسه فى مصر من جهد لتحصينها وحمايتها. وعبر صلاح الدين عن موقفه من نور الدين تعبيراً عملياً عندما أرسل إليه سيده نور الدين يأمره بالخروج ومحاصرة حصن الكرك الذى كان بأيدى الصليبيين الذين استخدموه فى ضرب القوافل الإسلامية بين مصر والشام. وقد ذهب نور الدين بنفسه إلى حصن الكرك سنة ١١٧٣ لمشاركة صلاح الدين فى هذه العملية العسكرية. وعندما علم صلاح الدين بأن نور الدين ينتظره عند الكرك، أرسل إليه "يعتذر عن الوصول باحتلال بلاد مصر". وعندئذ غضب نور الدين "وعزم على دخول مصر وقلع صلاح الدين منها". وعندما بلغت هذه الأخبار صلاح الدين "جمع أهله واستشارهم. وهكذا التهب الموقف، وشرع نور الدين يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين، لولا وفاته المفاجئة سنة ١١٧٤، وبذلك خلا الميدان أمام صلاح الدين. ويبدو من خلال كتابات المؤرخين المعاصرين أن نفوذ صلاح الدين فى مصر فى الحقبة التى شهدت سوء العلاقات بينه وبين نور الدين محمود تميز بالحزم والحرص على معاملة أهل البلاد بالحسنى من جهة والتصدى لهجمات الصليبيين التى لم تتوقف من جهة أخرى. هذا فضلاً عن موقفه الحاسم من أتباع وذيول الدولة الفاطمية من جهة ثالثة. وحسب صلاح الدين أن المؤرخين المعاصرين لقَّبوه فى ذلك الدور بالسلطان، ووصفوا الموقف بينه وبين نور الدين محمود بأنه "وحشة بين الملك العادل نور الدين محمود وبين السلطان صلاح الدين يوسف".



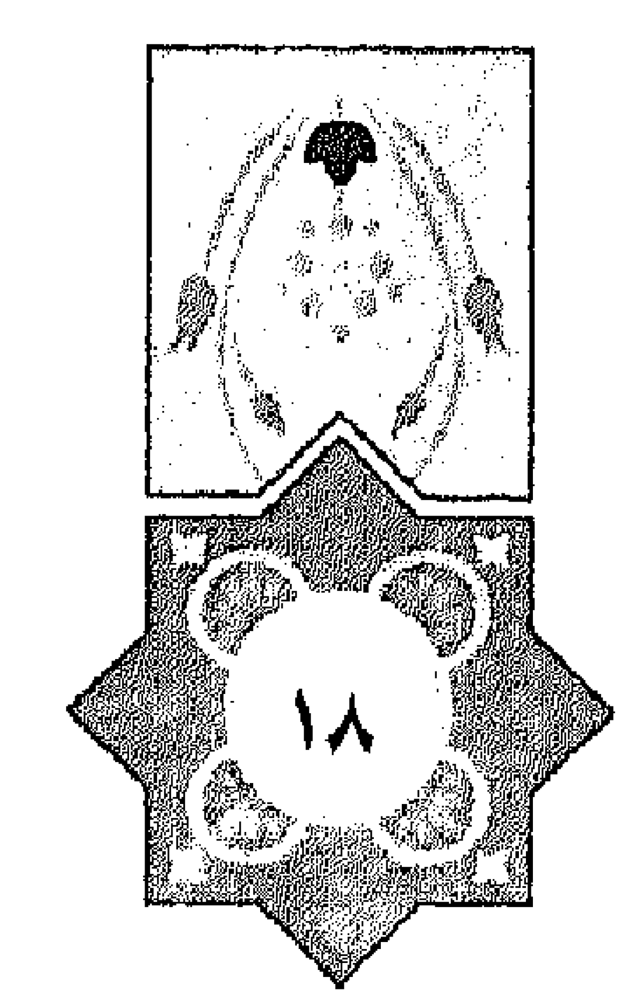


الفصل الثانى
صلاح الدين بين خطرين

على أن التنافس مع الملك العادل نور الدين محمود لم يكن المصدر الوحيد للمتاعب التى عانى منها صلاح الدين فى تلك المرحلة المبكرة من مراحل تاريخه فى مصر، وإنما كان عليه أن يواجه سلسلة من المتاعب، وبخاصة من جانب ذيول الفاطميين من جهة والخطر الصليبى الذى لم يتوقف من جهة أخرى. وكثيراً ما كان يلتحم هذان الخطران ويكونان جبهة واحدة ضد العدو المشترك ممثلاً فى صلاح الدين.

أما الخطر الداخلى ممثلاً فى أتباع الخلافة الفاطمية، فكان مصدره الشيعة الذين كان لهم نفوذ كبير فى البلاد رغم القضاء على قوة الجند السودان من جهة ووفاة الخليفة العاضد من جهة أخرى. وكان للفاطميين أتباع كثيرون من المنتفعين من حكمهم، انتشروا فى أنحاء البلاد يروجون للحكم الفاطمى ويدعون لإحيائه، ولتحقيق هدفهم لم يحجم هؤلاء عن الاتصال بالعدو الخارجى ممثلاً فى الصليبيين الذين ظلوا يتطلعون إلى امتلاك مصر ويخشون قيام وحدة إسلامية متحدة تمتد من الفرات إلى النيل، تحصرهم بين فكيها.

وكان أن دبرت مؤامرة فى القاهرة سنة ١١٧٤م جمعت العناصر الموالية للفاطميين والناقمة على صلاح الدين، وأعلنت أن هدفها «إقامة الدعوة العلوية وردها إلى ما كانت عليه». وعلى رأس هذه الحركة كان الشاعر عمارة اليمنى الذى وصفه المؤرخ ابن واصل بأنه كان متمسكاً بالولاء للفاطميين «شديد التعصب لهم» «رغم أنه لم يكن شيعيا ولم يكن على مذهبهم». وعندما أدرك المتآمرون أنهم فى حاجة إلى حليف يشد أزرهم، اتصلوا بطائفة الحشيشية الذين اتسع نشاطهم فى إقليم الشرق الأدنى، ومارسوا عملية الإرهاب وسفك دماء عدد من زعماء السنة والصليبيين سواء. ولم يتردد زعماء المؤامرة فى إجراء اتصالات عاجلة مع «شيخ الجبل»، وهو مقدم الإسماعيلية فى بلاد الشام، طالبين منه إبقاء من يقدم على قتل بعض الزعماء والملوك واغتيالهم، وذلك «ليفتكوا بصلاح الدين» وفى نفس الوقت رتب المتآمرون خطة ليقوموا بغزو مصر، فى الوقت الذى يشعلون الثورة فى القاهرة والفسطاط؛ وبذلك يقع صلاح الدين فى الفخ، ويمكن القضاء عليه، ثم إن



المتآمرين لم يكفوا عن الاستعانة بالصليبيين والاتصال بالملك عمورى الأول، ملك بيت المقدس، بل اتصلوا أيضاً بوليم الثانى النورمانى ليد هم الإسكندرية عن طريق البحر بأسطوله القوى، وبذلك يتبدد كل أمل لصلاح الدين فى أن يفلت من الوقوع فى قبضة خصومه..

وكان أن سارت عملية تنفيذ الخطة بخطى سريعة "بحيث لم يبق إلا رحيل الفرنج" على حد قول المؤرخ ابن الأثير، وبلغ من ثقة المتآمرين فى تنفيذ الخطة، أن شكلوا الحكومة الجديدة التى سيحل أعضاؤها محل صلاح الدين وحكومته "وعينوا الخليفة والوزير، وتقاسموا الدور والأملاك. وتحدد موعد تنفيذ المؤامرة أثناء غياب تورانشاه فى اليمن، حتى لا يمكنه مساعدة أخيه إذا نجا، أو يحل محله إذا قتل.

وقد بالغ عمورى الأول ملك بيت المقدس فى إخفاء نواياه، وأرسل قبل تنفيذ المؤامرة رسولاً إلى القاهرة تحت شعار حمل تحيات الملك الصليبى لصلاح الدين، ولكنه فى حقيقة الأمر أتى ليتصل بالمتآمرين سراً وليرسم معهم الخطوات النهائية لتنفيذ المؤامرة، وكان ذلك فى الوقت الذى اتخذ وليم الثانى ملك صقلية كافة الاستعدادات لمهاجمة صلاح الدين فى مصر، وأعد لذلك أسطولا ضخما يتألف من ستمائة سفينة تحمل ما يقارب من ثلاثين ألف مقاتل.

ولكن شاء الله أن تنكشف المؤامرة لصلاح الدين قبل تنفيذها بقليل؛ ذلك أنه كان بين المتآمرين الواعظ زين الدين على بن نجا، فقام هذا الفقيه باطلاع صلاح الدين بخطر المتآمرين أولاً بأول. وعندما وصل إلى القاهرة مبعوث الملك عمورى الأول يحمل الهدايا وآيات السود والمحبة لصلاح الدين، وضعه صلاح الدين تحت رقابة شديدة عن طريق بعض أقباط مصر، حتى سقط فى أيديهم متلبساً. ولم يتباطأ صلاح الدين فى إنزال العقوبة بالمتآمرين، فصلب زعماءهم الشاعر عمارة اليمنى، وعبد الصمد الكاتب، والعوريس القاضى، فى حين اختفى آخر ذيول الدولة الفاطمية "حيث أفنى صلاح الدين بعد ذلك من بقى منهم" على قول ابن واصل (سنة ٥٦٩هـ)، "وتتبع صلاح الدين من له هوى فى الدولة الفاطمية، فقتل منهم كثيراً وأسر كثيراً، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر، ورجال السودان إلى أقصى بلاد الصعيد.." على قول المقريزى.

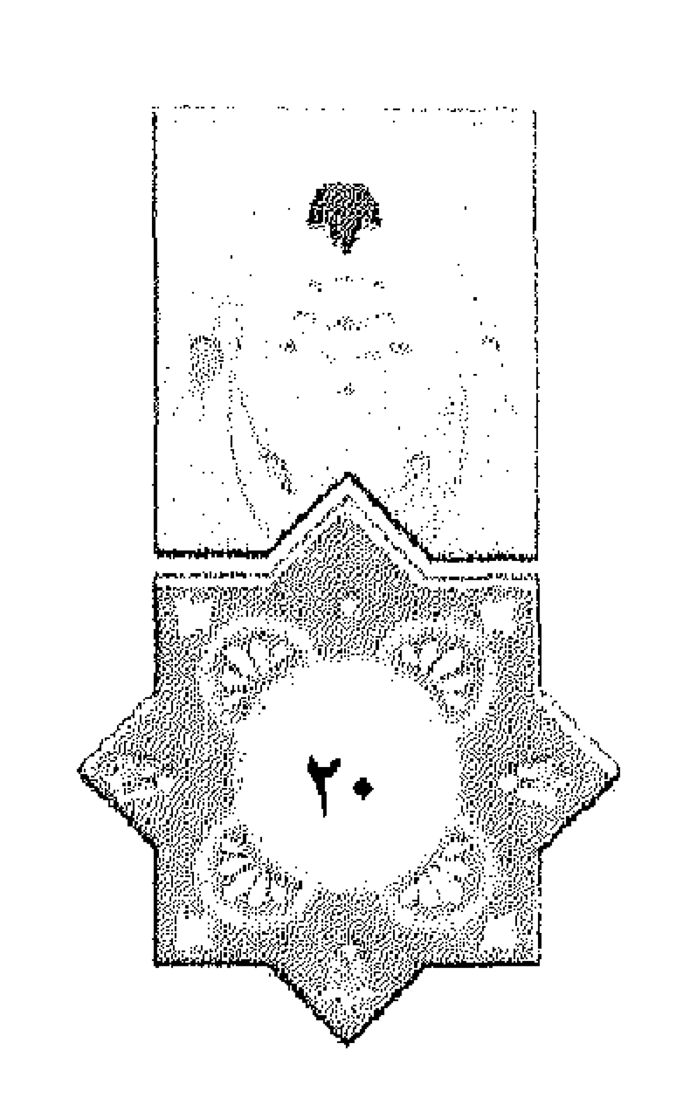
وقد رأى صلاح الدين أنه يستحسن اطلاع سيده نور الدين محمود بالشام على تفاصيل هذه المؤامرة، فأرسل إليه كتاباً بخبرها، ولكن شاء القدر أن يكون "وصول الكتاب إلى دمشق يوم وفاة نور الدين، وهو يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة".

هكذا انفرط عقد المؤامرة الكبرى التى شكلت أكبر خطر واجهه صلاح الدين وهدد بقاءه فى الحكم ليسجل صفحة خالدة من صفحات الجهاد، ولم يلبث صلاح الدين أن وجه جهوده لإخماد

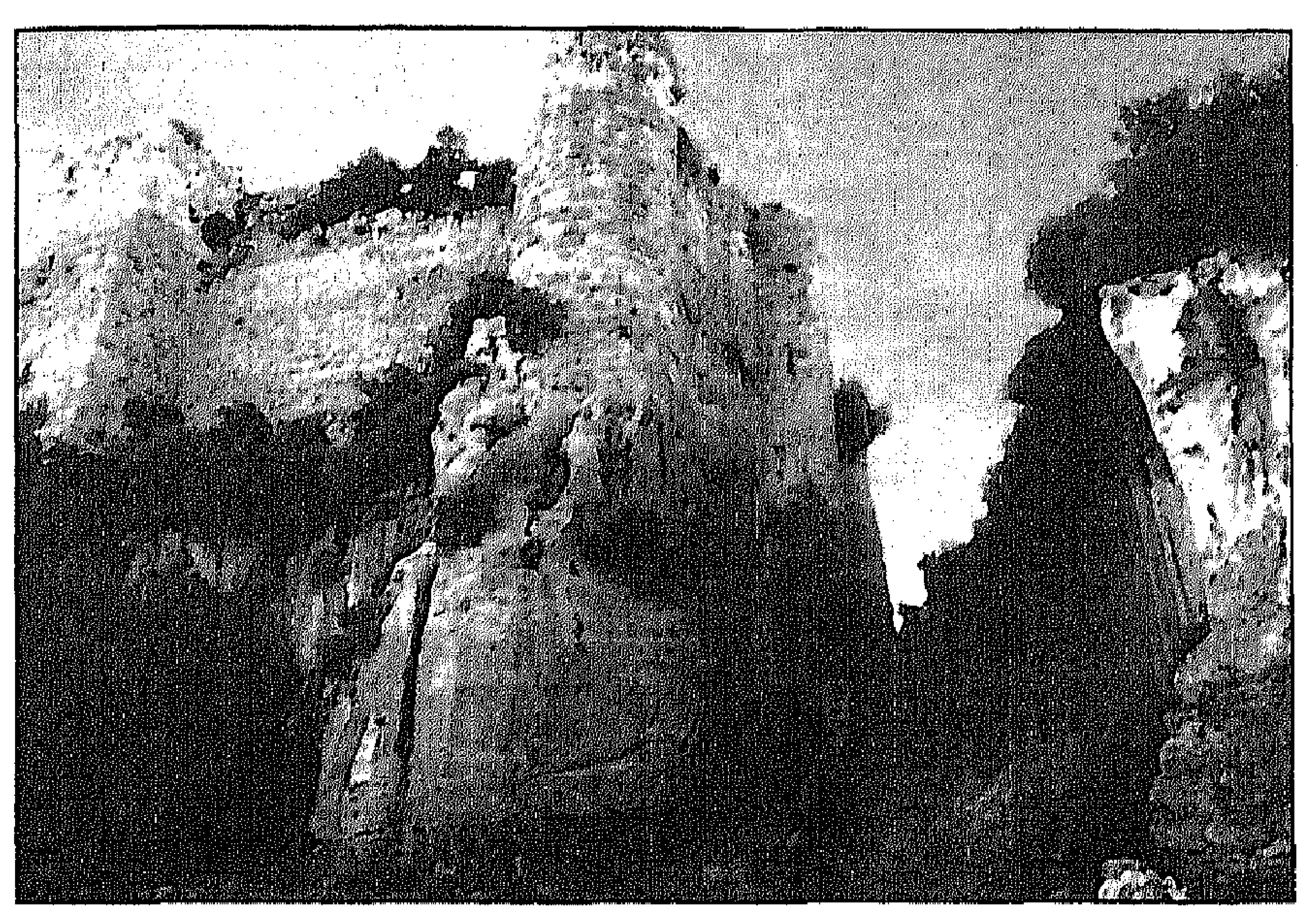
فـتنة اشـتعلت ضـده فى أسـوان- على حـدود النوبة أشـعلهـا أحد القـادة الفاطميـين- يلقب بكنز الدولة- جمع حوله فى أسوان بعض عناصر الشـيعة والجند السـودان وأوهمـهم أنه يمتـلك البلاد ويفـيـد الدولة العـبيـدية -أى الفاطمية- ولكن صلاح الدين أسرع بإرسال أخيه العادل على رأس حملة فى سبتمبر ١١٧٤ استطاعت أن تخمد تلك الحركة وتمحو الآثار التى ترتبت على فتنتهم "فأستأصل شأفتهم وأخمد ثائرتهم".

أما أسطول صقلية فقد ظهر بعد فوات الأوان؛ ذلك أن عمورى الأول ملك بيت المقدس ما كاد يعلم بانكشاف أمر الفتنة التى دبرت لخلع صلاح الدين وغزو مصر، حتى انهار متوفياً من أثر فشل الخطة الموضوعة. وكان ذلك فى صيف سنة ١١٧٤ عندما وصل إلى مياه الإسكندرية الأسطول الذى بعث به وليم النورمانى ملك صقلية، أمام فشل المؤامرة وخطة الإطاحة بصلاح الدين من جهة، ووفـاة الملك عمورى قائد وزعيم الجناح الصليبى من جـهة أخرى، وجد قائد الأسطول نفسه بلا جناحين مما جعل محاولة غزو مصر بريا وبحريا أمرا صعب التنفيذ، حقيقة أن قائد الأسطول النورمانى الذى وصل أمـام الإسكندرية فى ٢٨ يوليو سنة ١١٧٤ تمكن من إنزال قواته على الشـاطئ، كما دمر بعض السفن التـجارية الراسية فى مـيناء الإسكندرية، ولكن الجيش الإسلامى نجح فى صـد النورمان وأضرموا النار فى بعـض السفن الصليبيـة، فى الوقت الذى قدم صلاح الدين بنفـسه مسـرعاً فأنزل الهـزيمة بالنورمان برا وبحـرا، وجعل "العدو بين قـتل وغرق وأسر، مما جعل النورمان يصابون بخيبة الفشل" "وعادوا خائبين خاسرين" على قول أبى شامة.

وهكذا لم يحل خـريف عام ١١٧٤ إلا وكـان صلاح الدين قـد تغلب على الأخطار التى هددت مكانه فى مـصر. وكان على صـلاح الدين بعد ذلك أن ينـفخ فى صورة مشـروع الجبـهة الإسلاميـة المتحدة، وهو المشروع الذى لم يتمكن نـور الدين محمود من إتمامه، حـتى يمهد لرفع راية الجهاد الـدينى ضد الدخلاء الذين وفدوا من الغـرب الأوروبى واستقروا فى منطقـة هى بمثابة القلب من العالم الإسلامى.



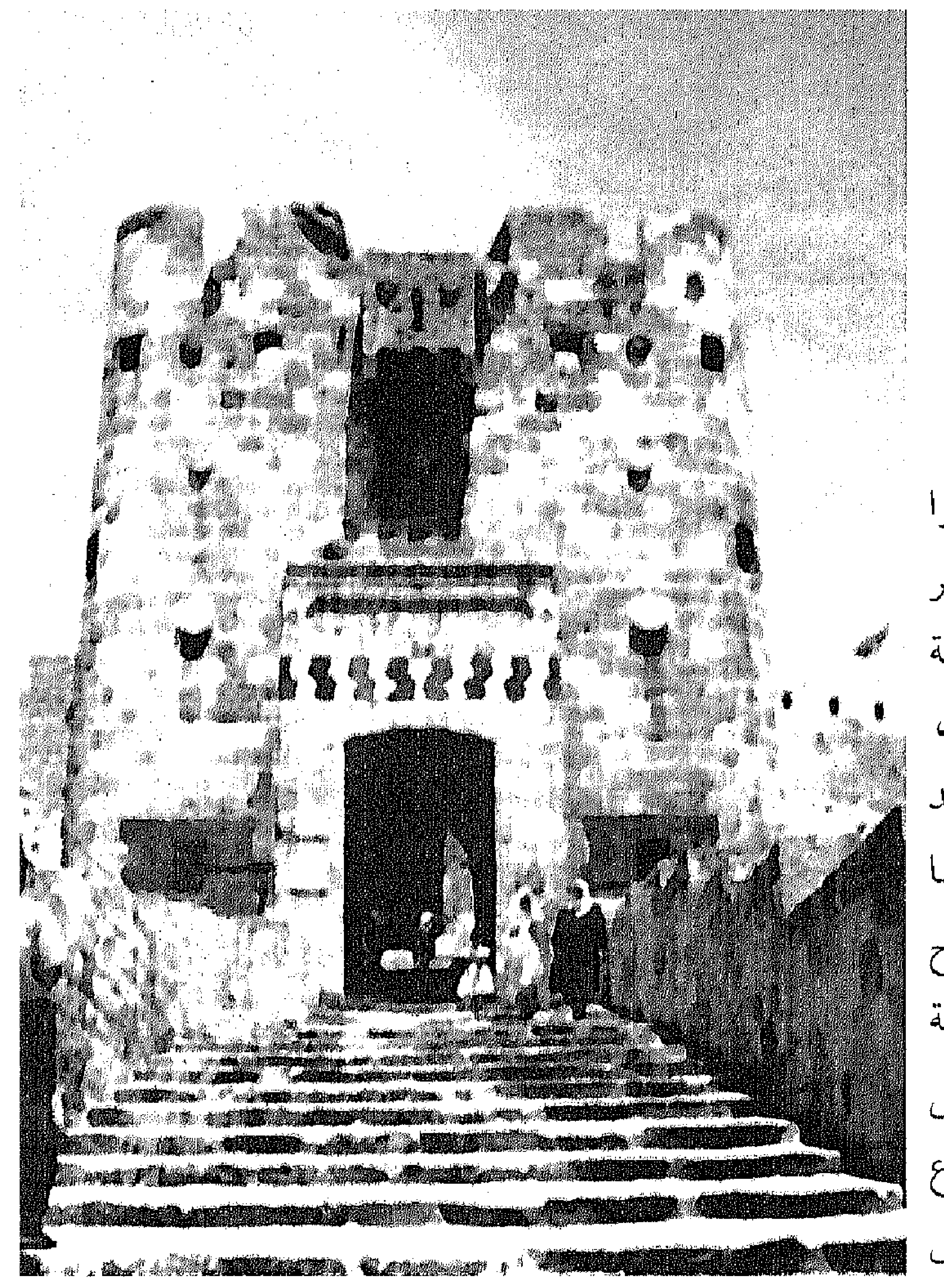
الفصل الثالث
صلاح الدين وبناء الوحدة الإسلامية



قلعة صلاح الدين - دمشق

تحتل سنة ١١٧٤ مكانة خاصة فى سيرة صلاح الدين، حيث إنها شهدت خروجه منتصرا من معركته الداخلية ضد القوى المناوئة التى شكلت حاجزاً يحول دون تحقيق زعامته على القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى- وبخاصة مصر-، وقد خلف نور الدين ابنه الصالح إسماعيل، وعمره إحدى عشرة سنة "فخطب له السلطان صلاح الدين بمصر وضرب السكة باسمه"، على قول المقريزى. ومن الواضح أن هذا الصبى الصغير كان لا يقوى على الصمود فى وجه الأخطار العديدة التى أحاطت به والتى خلفها له أبوه، وبذلك تضاعف ثقل الحمل الذى كان على صلاح الدين أن يتحمله فى تلك المرحلة.

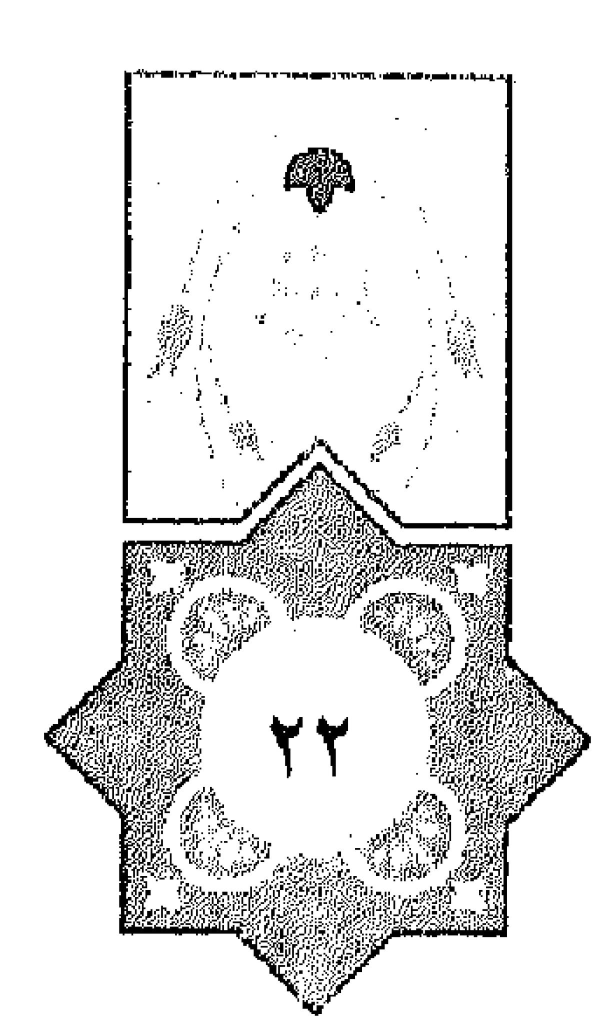
وإذا كانت سنة ١١٧٤ بأحداثها الخطيرة تشكل حدا بين مرحلتين فى تاريخ صلاح الدين، فإن إحساس صلاح الدين بمسئولية الأمانة التى ورثها عن سيده نور الدين محمود، جعله يتخذ من تلك الأجواء طريقا يؤدى به إلى الهدف الرئيسى الذى يشغل باله وهو استئصال الخطر الصليبى فى الشرق الأدنى وتأمين العالم الإسلامى من موجة التيار الصليبى الذى استفحل خطره وبات من الواضح أنه لن يستأصل إلا بضربة شاملة تنطلق من قلب العالم الإسلامى.



قلعة حلب

على أن صلاح الدين كان أبعد نظرا وأكثر تقديرا لحقيقة الموقف من أن يغامر بدخول حرب ضد عدد من القوى المعادية لكل منها ظهر يسندها ويقف إلى جانبها، ثم إن صلاح الدين تلفت حوله فلم يجد سوى جماعات إسلامية متناثرة، مزقتها الفرقة والخلافات والتنافس وربما روح العداء. وكان أن أدرك صلاح الدين أن نقطة البدء تكون دعم الوحدة الإسلامية وتحويل هذه القوى المبعثرة بين عديد القلاع والحصون والمدن والقرى إلى بنيان مرصوص يشكل جبهة قوية تستطيع مواجهة الأعداء وتصمد حتى يتم طردهم من ديار الإسلام. وهكذا بدأ دور جديد فى تاريخ صلاح الدين امتد من سنة ١١٧٤ حتى سنة ١١٨٧ يمكن أن نطلق عليه اسم دور دعم الوحدة الإسلامية. وامتاز هذا الدور بتركيز الجهود من أجل تحقيق وحدة بين القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى، مع عدم غض النظر عن الخطر الصليبى الذى تغلغل فى قلب بلاد المسلمين.

ولم تكن المهمة سهلة، إذ تعددت المشاكل بين الطامعين فى ميراث نور الدين من أهل بيته من ناحية وكبار أمراء نور الدين بعضهم وبعض، حول الوصاية على الملك الصالح إسماعيل الابن الشرعى لنور الدين من ناحية أخرى، بالإضافة إلى أطماع الصليبيين وتطلع الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس إلى مصر وما بقى بأيدى المسلمين فى بلاد الشام من ناحية ثالثة. ولتفصيل ذلك لابد من إلقاء نظرة على موقف صلاح الدين عقب وفاة سيده نور الدين محمود، إذ إن وفاة نور الدين محمود فى قلعة دمشق فى منتصف مايو سنة ١١٧٤ أثارت إشكالا كبيرا بين ورثته مما هدد الوحدة الإسلامية التى أجهد نفسه فى بنائها. وكان الوريث الأول لنور الدين- كما سبق أن ذكرنا- هو ابنه الملك الصالح إسماعيل وهو صبى فى الحادية عشرة من عمره، على أنه وجد للملك الصالح إسماعيل هذا ابن عم هو سيف الدين غازى الثانى بن قطب الدين مودود بن زنكى

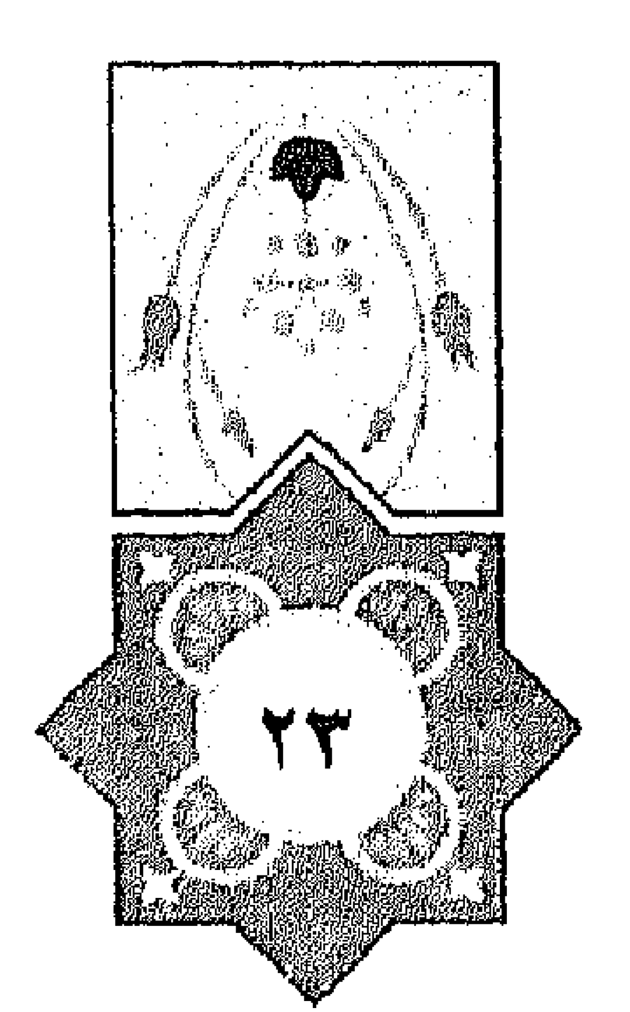


أتابك الموصل الذى ذكرت عنه المصادر أنه "فرح بوفاة عمه نور الدين، وأظهر الفسق، وأمر بإعادة المكوس، وتظاهر بالمنكرات. . " . وعندما سمع سيف الدين هذا بوفاة عمه نور الدين بادر باحتلال نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقة وغيرها من الأماكن التى كانت تابعة لنور الدين فى الجزيرة، وبذلك غرس بذور فتنة جديدة فى أوساط المسلمين بالشام.

وقد حدثت هذه الفتنة فى الوقت الذى دب النزاع بين أقوى اثنين من أمراء نور الدين، هما شمس الدين على بن الداية وشمس الدين محمد المعروف بابن المقدم. وقد احتدم الخلاف بين هذين الأميرين بسبب الوصاية على الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها مركز الدولة النورية، فى حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك إسماعيل فى دمشق.

ومن ناحية أخرى، حاول عمورى الأول ملك بيت المقدس أن يستغل ذلك الوضع الذى أضحت فيه دولة نور الدين ليستولى على بانياس، ولكن المدينة صمدت لحصاره أسبوعين بفضل المعونة التى قدمها لها ابن المقدم، إذ خرج على رأس الجيش الدمشقى للدفاع عن بانياس، وإن كان قد اتبع إزاء الصليبيين سياسة قوامها مهادنة الصليبيين ومحالفتهم ضد صلاح الدين؛ ولذا "راسلهم ولاطفهم" واكتفى بأن عرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال، وإطلاق سراح أسرى الصليبيين فى دمشق. وفى الوقت نفسه هدد ابن المقدم فى حالة عدم استجابة الصليبيين لعرضه بأنه سيطلب معونة سيف الدين غازى فى الموصل وصلاح الدين فى مصر. وكشف ابن المقدم فى عرضه، على الصليبيين عن حقيقة لابد أن يعملوا لها حساب، هى أن صلاح الدين كان حتى ذلك الوقت يخشى الخروج إلى الشام ليتجنب الاصطدام بنور الدين، ولكن "الآن زال ذلك الخوف، وإذا طالبناه إلى بلادكم لا يمتنع" . ويبدو أن هذه الاعتبارات كان لها أثرها فى نفوس الصليبيين، فوافق الملك عمورى على عقد الصلح، ورفع الحصار عن بانياس، وارتد عائدا إلى بيت المقدس، ويروى أبو شامه إنه عندما علم صلاح الدين بسلوك المقدم استاء "واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم" .

وقد أدرك صلاح الدين أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين موجهان ضده؛ ولذا أرسل إلى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وخليفته وأمراء بلاطه "يقبح لهم ما فعلوه" ، على قول ابن واصل. على أن الملك عمورى لم يستطع المضى فى تنفيذ ذلك التخطيط، حيث إنه لم يلبث أن توفى فى يوليو سنة ١١٧٤، وبوفاته خسر الصليبيون فرصة استغلال الانقسامات بين أمراء الدولة النورية عقب وفاة نور الدين.



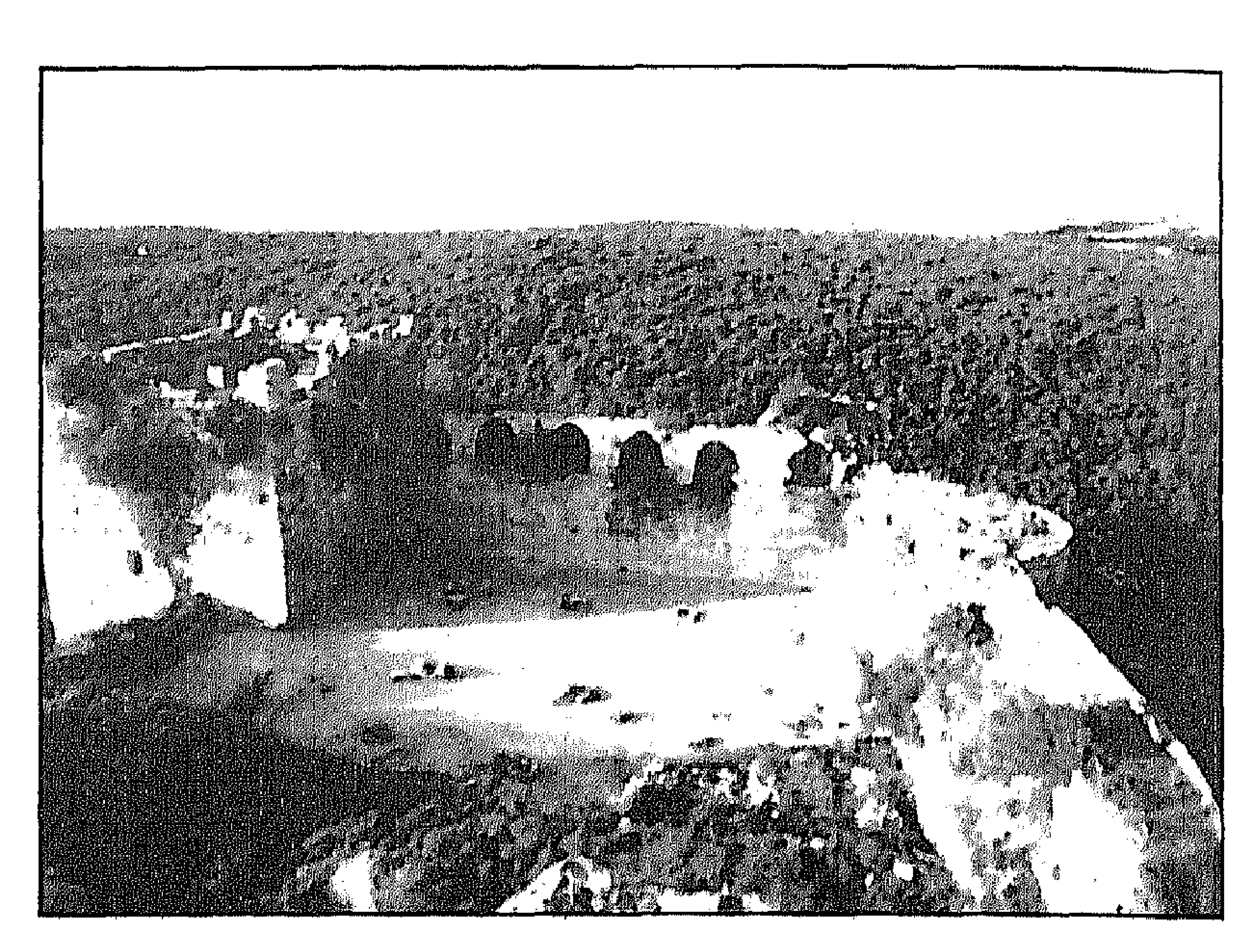
وزاد من حدة هذه الانقسامات فى الجبهة الإسلامية أنها لم تقتصرعلى مطامع سيف الدين غازى من جهـة، وما كان هناك من تنافس بين ابن المقدم فى دمشق وابن الداية فى حلـب من جهة ثانية، وإنمـا ظهر طرف ثالث على مسرح الجـبهة الإسلامية، يتـمثل فى شخص سعد الدين كمـشتكين الخادم- أحد أمراء نور الدين محمود- وقـد نجح فى نقل الصالح إسماعيل من دمشق إلى حلب، بوصفها ركيزة الدولة النورية ، وتم ذلك فى صيف ١١٧٤. ولم يلبث أن قبض سعد الدين كمشتكيـن على شمس الدين ابن الداية واعتقله، وبذلك انفرد بأتابكية الملك الصالح إسماعيل واستبد بتدبير أموره" .

وكان أن أثار ذلك الموقف الجديد مـخاوف ابن المقدم وبقية الأمراء فى دمشـق، فاستنجدوا بسيف الدين غازى وبقية الأمراء فى الموصل، وعرضوا عليه تسليمه دمشق. ويبدو أن سيف الدين غازى تراخى فى تلبيـة هذا النداء، مما جعل ابن المقدم وشركاءه يتخـذون خطوة كان لها أثرها فى التاريخ، إذ دعوا صلاح الدين للخروج إلى الشام وتسلم دمشق. "فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين لم يلبث. . وسار إلى دمشق، فخرج كل من بهـا من العسكر إليه، فلقوه وخدموه، ودخل البلد. . "على قول ابن الأثير وكان ذلك فى أواخر سنة ١١٧٤م.

الفصل الرابع
صلاح الدين ملك مصر والشام

ولم يكن خروج صلاح الدين إلى بلاد الشام فى هذه المرة بهدف تحقيق مكاسب شخصية، وإنما كان تنفيذا لمصلحة عليا، محورها تحقيق الوحدة الإسلامية فى الشرق الأدنى، وطرد الصليبيين الوافدين من غرب أوروبا من الأراضى والبلاد التى انتزعوها من أهلها وأصحابها، وذلك بوقوف المسلمين صفا واحدا فى مواجهة الدخلاء الغاصبين. وحسب صلاح الدين أنه أعلن عند خروجه إلى بلاد الشام أنه"لو استمرت ولاية هؤلاء القوم، تفرقت الكلمة وطمع الكفار فى البلاد.. ". ثم إنه أعلن أنه بخروجه إلى الشام"لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم"على قول ابن الأثير. ولا أدل على الموهبة السياسية التى تمتع بها صلاح الدين، من سلوكه عند وصوله إلى دمشق، إذ تظاهر بولائه المطلق للصالح إسماعيل- ابن نور الدين. وأعلنها على الملأ"أنا مملوك الصالح، وما جئت إلا لأنصره وأخدمه، وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه. وكان يخطب له فى بلاده كلها (أى بلاد الصالح إسماعيل بن نور الدين)، والخطبة والسكة (النقود) باسمه". وهكذا أعلن صلاح الدين أنه ما حضر إلى الشام إلا لحماية الصالح إسماعيل من خطر الصليبيين، ولاسترداد ممتلكات الصالح التى استولى عليها أتابك الموصل فى إقليم الجزيرة. وتحت هذا الستار

خريطة الدولة الأيوبية- عهد صلاح الدين الأيوبى



الحصون والأسوار فى قلعة صلاح الدين - دمشق

يمكن لصلاح الدين أن ينفذ سياسته، ويمكن إعادة بناء الجبهة الإسلامية لتمتد إلى ما كانت عليه من قبل، لتشمل شمال العراق فالشام ومصر، أى تمتد من الفرات إلى النيل. فإذا تم بناء الجبهة الإسلامية، فعندئذ يمكن الشروع فى حركة الجهاد على أساس سليم لا يقوى الصليبيون على مواجهته.

ولم ينس صلاح الدين أن يستميل إليه الدماشقة بالإحسان والمنح، "فأنفق فى الناس مالا جزيلا، وأمر فنودى بإطابة النفوس وإزالة المكوس، وإبطال ما أحدث بعد نور الدين من القبائح والمنكرات والضرائب" على قول المؤرخ المقريزى.

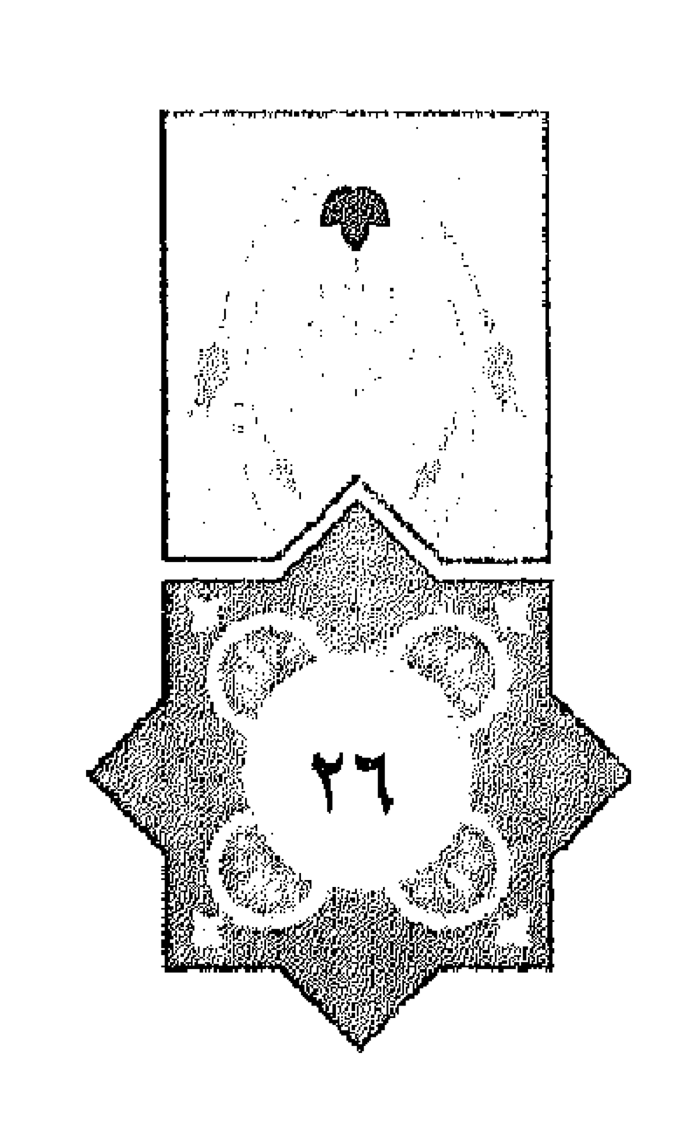
وبعد أن عين صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب حاكماً على دمشق نائباً عن الصالح إسماعيل، اتجه إلى حلب ليعاقب كمشتكين.



درهم نحاس عليه اسم «الناصر صلاح الدين يوسف»



درهم نحاس عليه صورة الناصر صلاح الدين

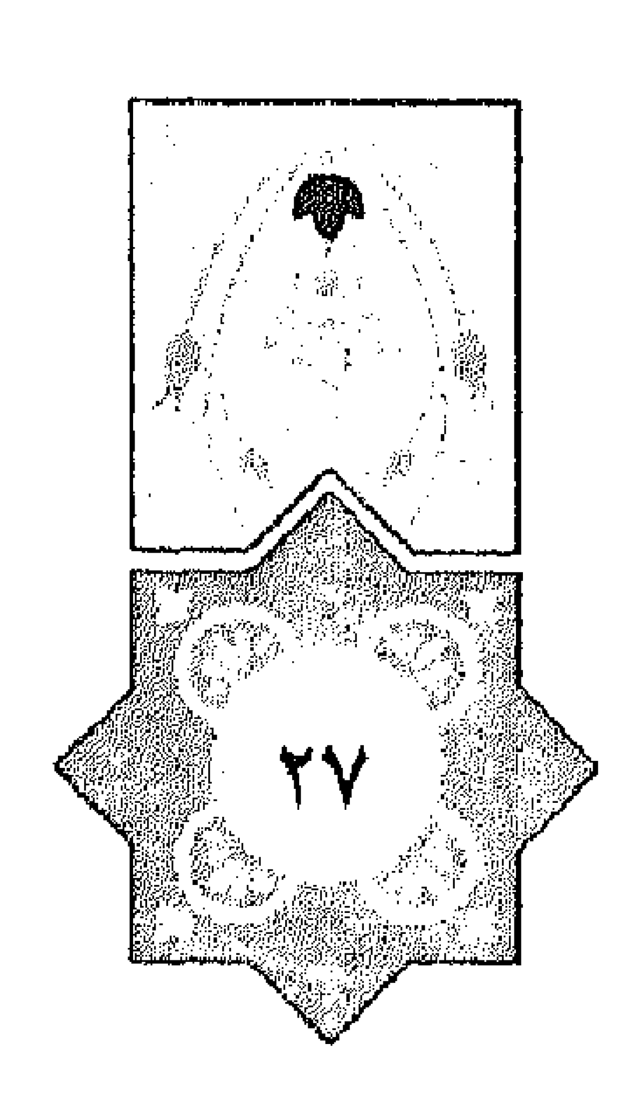


وفى طريقه من دمشق إلى حلب، استولى صلاح الدين على عدد من المدن الهامة، منها حمص وحماه(ديسمبر ١١٧٤) وقد استسلم حكامها من النوريين دون مقاومة. أما حلب نفسها فقد أبت الاستسلام وأرسل من فيها من الأمراء أصحاب النفوذ إلى الباطنية والصليبيين يطلبون منهم العون ضد صلاح الدين. ولم يلبث سنان- مقدم الإسماعيلية الباطنية- أن استجاب للنداء، وأرسل إلى معسكر صلاح الدين جماعة من الفدائيين لقتله. وفعلا بدأ التخطيط للجريمة، ولكن حدث عندما اقترب الجناة من صلاح الدين أن انكشف أمرهم. وعندئذ بادر الحلبيون بالاتصال بالأمير ريموند الثالث أمير طرابلس وطلبوا منه المبادرة بتخليص الجناة من قبضة صلاح الدين مقابل مبلغ كبير من المال يدفعونه له.

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس يقوم فى تلك المرحلة بالوصاية على عرش مملكة بيت المقدس، ولاشك فى أنه كان يدرك تماما- بحكم مكانته- أهمية تحالف الصليبيين مع حلب الإسلامية، كما أحس بخطورة قيام وحدة إسلامية تضم القاهرة ودمشق وحلب في جبهة واحدة؛ لذلك تظاهر ريموند الثالث بالقيام بدور حامى مصالح إسماعيل بن نور الدين وأسرع إلى نجدة حلب من سيطرة صلاح الدين. ويعلق المؤرخ الصليبى وليم الصورى على ذلك بقوله: إن ريموند الثالث قام عندئذ بدور المدافع عن حلب لا احتراما لحقوق الصالح إسماعيل وإنما نكاية فى صلاح الدين، ولكى يسد فى وجهه أى طريق يمكن أن يؤدى إلى وحدة الصف بين المسلمين، وبعبارة أخرى فإن الصليبيين أدركوا أن استقلال حلب وبقاءها فى قبضة البيت الزنكى هو الضمان الوحيد للحيلولة دون قيام وحدة إسلامية تمتد من الفرات إلى النيل.

ويروى صاحب كتاب الروضتين أن ريموند الثالث حاول اللجوء إلى الوسائل السياسية، ومفاوضة صلاح الدين حول مسألة حلب؛ لذلك أرسل ريموند إلى صلاح الدين يرغبه فى الصلح، ويلوح له بأن "الفرنج تعاضدوا وصاروا يدا واحدة". ولكن صلاح الدين لم ينخدع ورد على ريموند قائلاً: «لست ممن يرهب بتأليب الفرنج». وألحق صلاح الدين رده بالإغارة على إمارة أنطاكية الصليبية «فغنموا غنيمة حسنة وعادوا»؛ على قول أبى شامة فى كتابه الروضتين.

ولصرف صلاح الدين عن حلب، لجأ ريموند إلى مهاجمة حمص التى كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أمد قريب. وكان أن نجحت هذه الخطة، فاضطر صلاح الدين فى أوائل فبراير سنة ١١٧٥ إلى ترك حلب والإسراع لإنقاذ حمص. وهكذا حقق ريموند الثالث غرضه، فانصرف ريموند الثالث إلى حصن الأكراد، وعبر صلاح الدين عن سياسة الحلبيين بأنهم "استنجدوا بصلبانهم، واستطالوا على الإسلام بعدوانهم"، أما كمشتكين حاكم حلب، فقد عبر عن اعترافه بالجميل للصليبيين بإطلاق سراح من كان فى قلعة حلب من أسرى الصليبيين وعلى رأسهم الفارس أرناط(رينو دى شاتيون) صاحب الدور الشهير مع صلاح الدين.

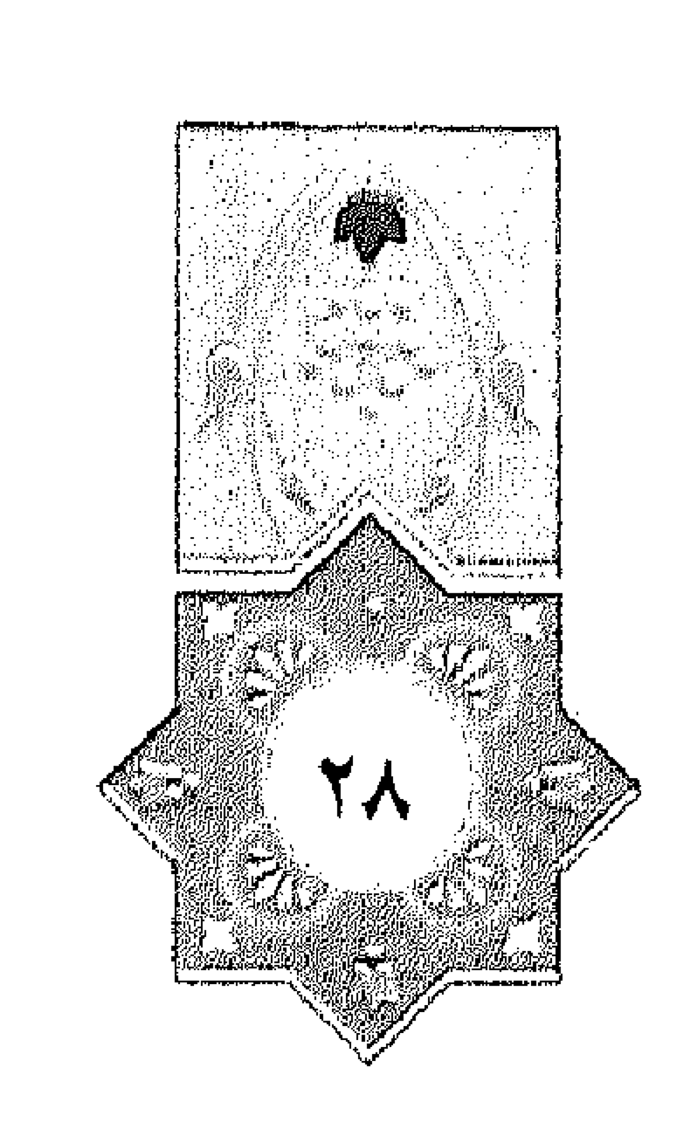


ولا يخفى عنا أن هجوم صلاح الدين على حلب جعل الزنكيين يدركون خطر صلاح الدين الذى يهدد كيانهم، ومن ثم أيقنوا ضرورة اتحادهم لمواجهة هذا الخطر. وتحت تأثير هذا الإحساس أرسل سيف الدين غازى الثانى- أتابك الموصل- جيشا إلى الشام فى ربيع سنة ١١٧٥ بقيادة أخيه عز الدين، وانضم إلى ذلك الجيش قوات حلب، وزحف الجيشان على حماة.

وعندما أحس صلاح الدين بالخطر عرض على خصومه من الزنكيين أن يترك لهم حمص وحماه، ويقنع هو بدمشق "نائبا عن الملك الصالح منتميا إليه". ولكن الزنكيين كانوا قد خططوا للاستيلاء على دمشق عقب عودة صلاح الدين إلى مصر؛ ولذا رفضوا هذا العرض، مما أدى إلى معركة بين الجانبين عند قرون حماة فى أواخر أبريل سنة ١١٧٥، انتصر فيها صلاح الدين "وغنم كل ما معهم". ولم يتباطأ صلاح الدين فى الاستفادة من ثمرة انتصاره، فزحف مباشرة على حلب، حيث قطع الخطبة للصالح إسماعيل، وأزال إسمه عن السكة. وكان أن بعث إليه أهل الصالح يلتمسون منه الصلح، فأجابهم بشرط "أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها". ثم استزاد صلاح الدين منهم المعرة وكفر طاب، ثم استولى على بعرين بعد ذلك.

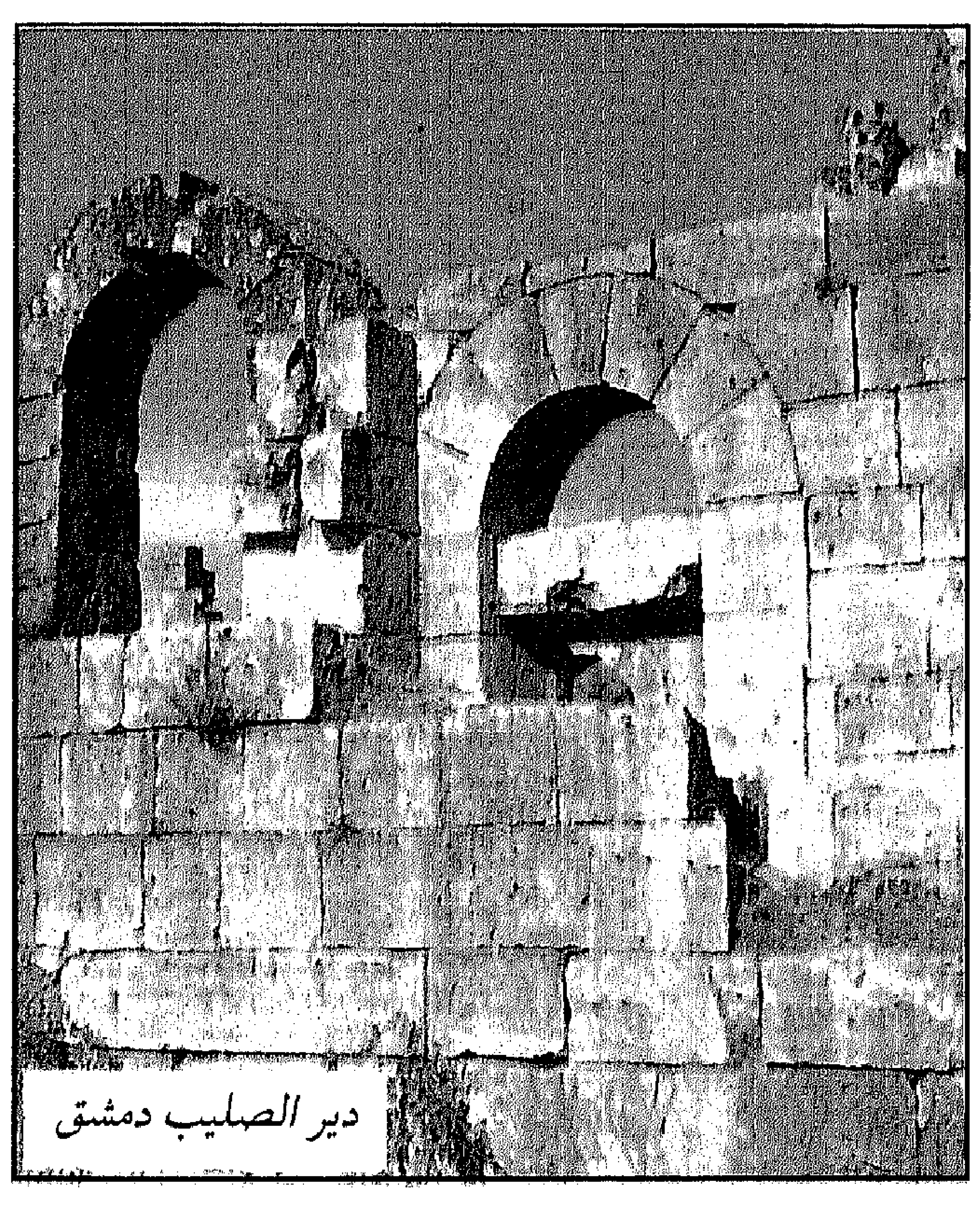
أما الانتصار الذى أحرزه صلاح الدين عند قرون حماه، فقد ألقى مزيدا من الضوء على حقيقة موقفه، إذ إنه لم يقنع بقطع الخطبة للصالح إسماعيل وإزالة اسمه عن السكة، وإنما تلقب صلاح الدين بلقب "ملك مصر والشام". وهنا نؤكد أن صلاح الدين لم يتخذ لنفسه مطلقاً لقب "سلطان"؛ وإن كان بعض المؤرخين- مثل ابن شداد وابن واصل والمقريزى- قد لقبوه بالسلطان.

ومهما يكن من أمر، فإن مكانة صلاح الدين ازدادت رسوخاً بعد أن اعترف الخليفة العباسى فى بغداد بوضعه وأرسل إليه الخلع وهو بحماه.

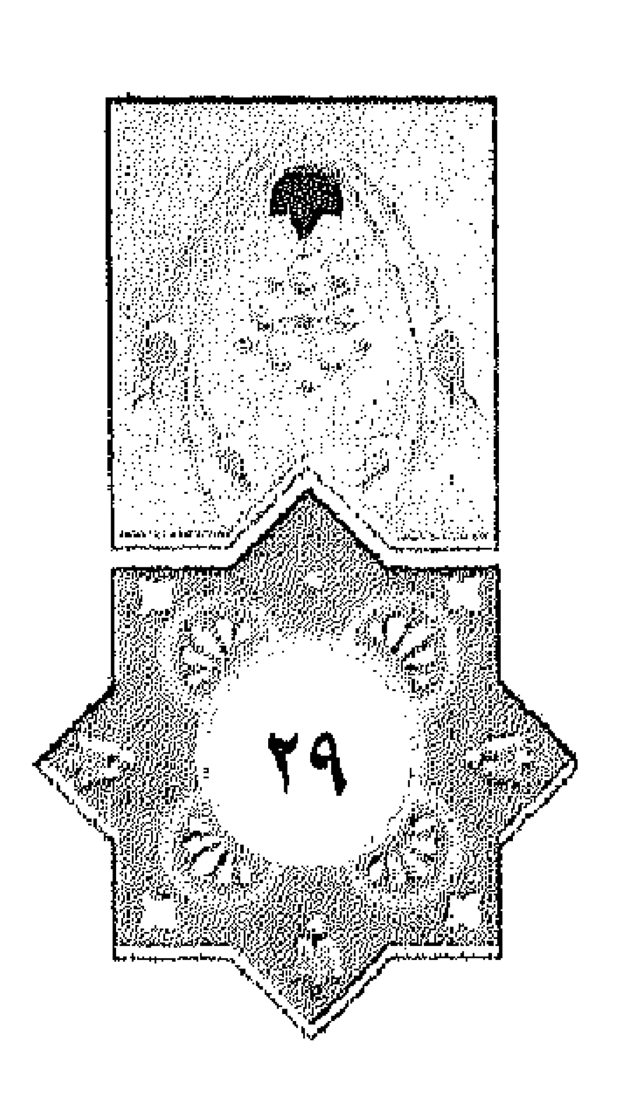


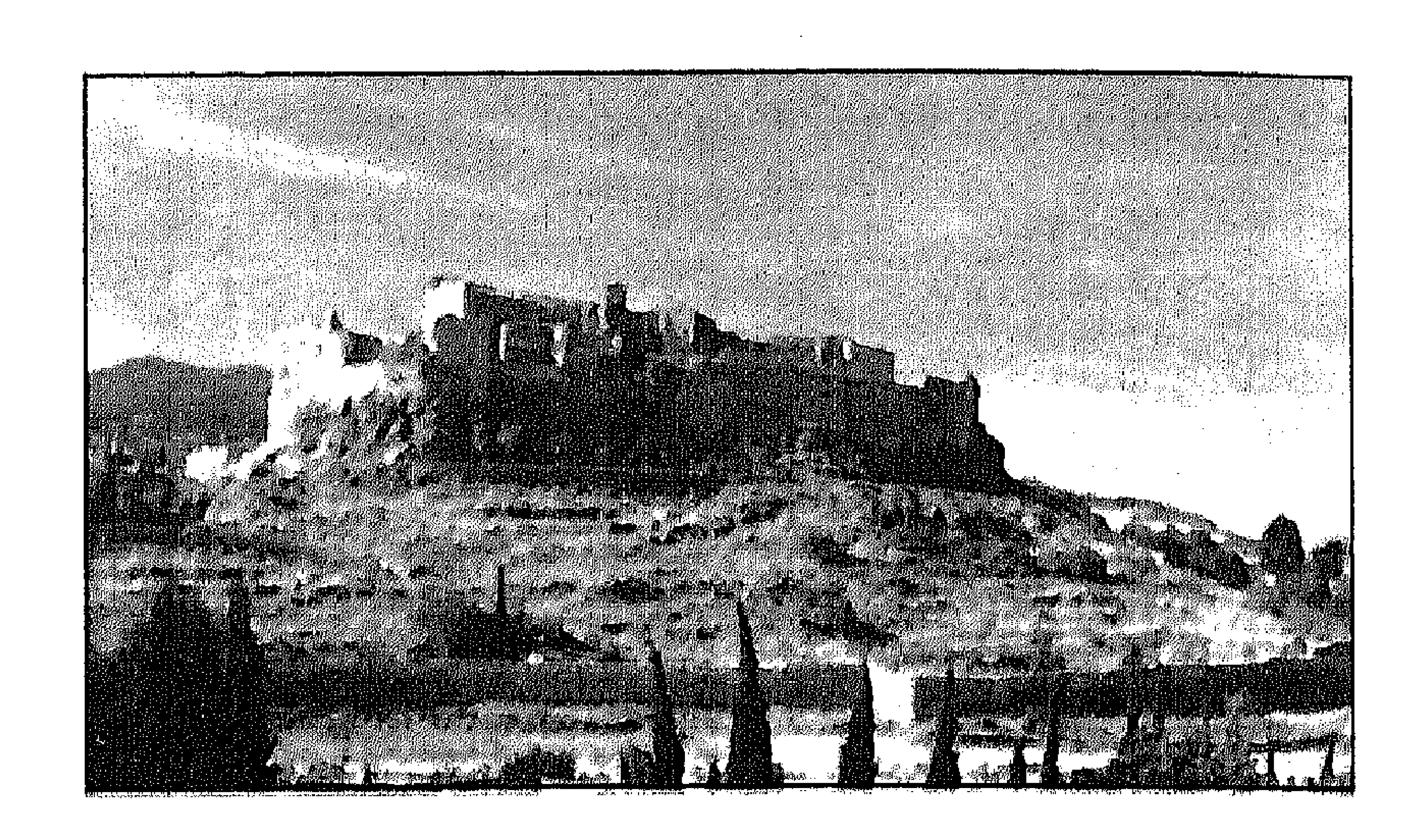
الفصل الخامس
صلاح الدين بين ثلاث قوى

ولكن إذا كان الصالح إسماعيل قد قبل- بحكم صغر سنه- سياسة الأمر الواقع؛ فإن ابن عمه، سيف الدين غازى بن مودود- أتابك الموصل- لم يرض عـما حققه صلاح الدين من مكانة على حساب البيت الزنكى. وكان أن أرسل غازى إلى الحلبيـين يعتب عليهم سلوكهم، وعجلتهم فى عقد الصلح مع صلاح الدين "ووبخهم"، وحثهم على نقض الصلح ومحاربة صلاح الدين، ولم يكتف سيف الدين غـازى بذلك، وإنما أرسل سـفارة أخرى إلى ريمـوند الثالث صـاحب طرابلس والوصى على مملكة بيت المقدس، يطلب مساندته فى الخطوة التالية التى يعد لها الزنكيون ضد صـلاح الدين. ولكى يؤكد غازى حـسن نواياه أرسل إلى ريموند جمـيع من لديه من أسرى الصليبيين(مايو ١١٧٥)، وبذلك تم إحياء سياسة أنـر القائمة على أساس التحالف مع الصليبيين، مما هدد الجبهة الإسلامية تهديداً خطيراً.


دير الصليب دمشق

والواقع أن الصليـبيين فى ذلك الدور لم يتوقـفوا عن مهاجـمة صلاح الدين، ولكن هجماتهم كانت ضـعيفة الأثر، محدودة النطاق بسبب انشغالهم بأوضاعهم ومـشاكلهم الداخلية. ومن المتاعب التى حـاول الصليبيـون إثارتها فى وجه المسـلمين، ما قـام به بلدوين الرابع- ملك بيت المقدس الصغير- من غزو إقليم دمشق سنة ١١٧٥ مـستغلاً انشـغـال صـلاح الدين فى الجـبـهـة الداخلـيـة. وتدل الـشـواهـد على أن صلاح الدين لم يشـأ فى تلك المرحلة أن يغـامـر بالدخـول فى حـرب ضـد الصليبيين قبل أن يصفى ما يواجهه من



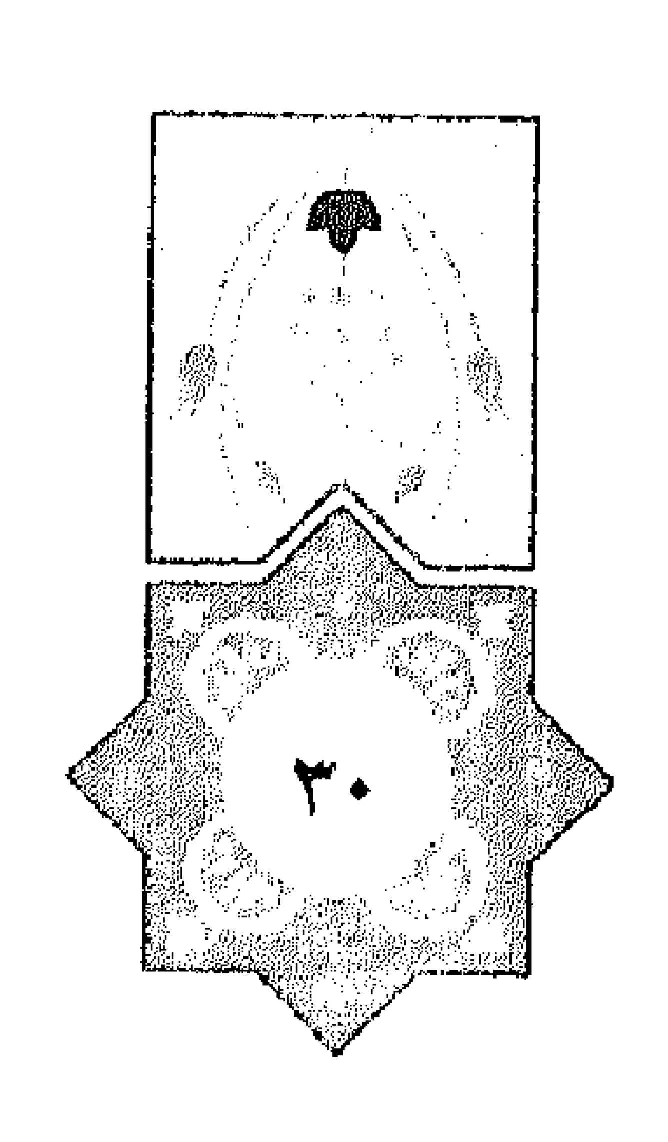



قلعة المصياف

مشاكل وأخطار فى الجبهة الداخلية، بين المسلمين بعضهم وبعض. وبعبارة أخرى، فإن صلاح الدين حرص على ألا يحارب على جبهتين فى وقت واحد: الزنكيون فى الشمال والشرق، والصليبيون فى الجنوب والغرب. وكان أن جدد فى أغسطس سنة ١١٧٥ الهدنة التى عقدها مع مملكة بيت المقدس، وذلك رغم السياسة العدوانية عندئذ ضد المسلمين.

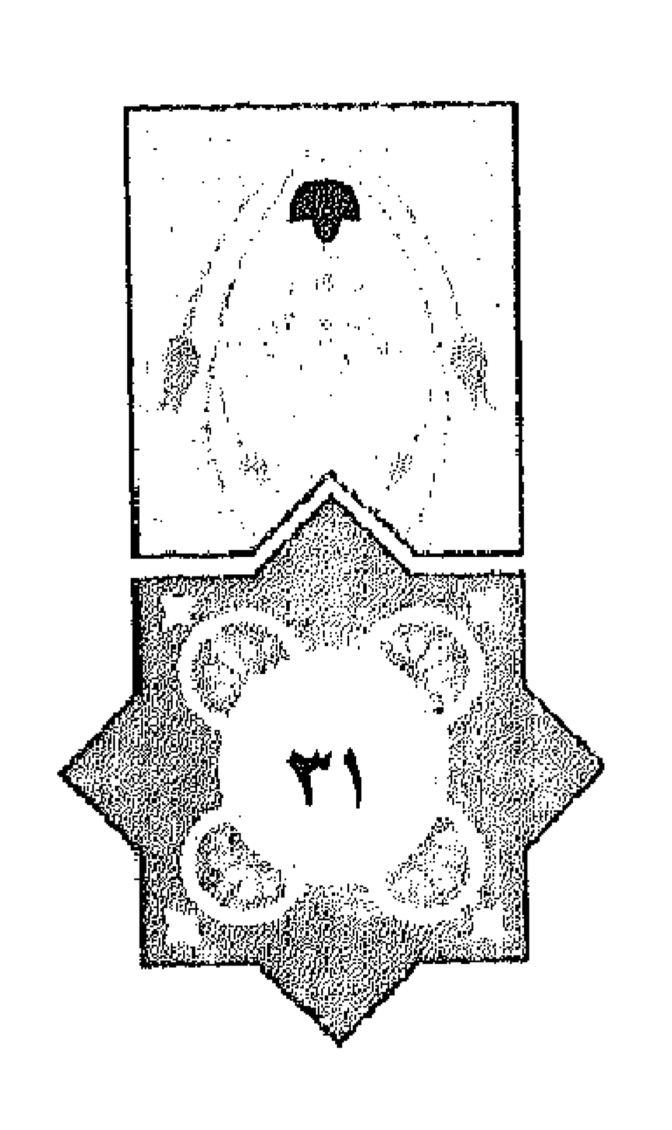
أما الزنكيون فظلوا فى حالة غليان ضد صلاح الدين الذى وضع يده على أثمن ما ورثوه عن آبائهم من بلاد وممتلكات، لذلك لم يتوقفوا فى تلك الأثناء عن الاستعداد لضرب صلاح الدين وتجريده من نفوذه وممتلكاته. وعندما اكتمل استعدادهم قرروا غزو دمشق بوصفها القاعدة الرئيسية لصلاح الدين فى بلاد الشام. وكان أن جمع سيف الدِين غازى فى ربيع ١١٧٦ أمراء الجزيرة وديار بكر، ثم انضم إليهم كمشتكين على رأس القوات الحلبية، وزحفت تلك الجيوش الضخمة على دمشق. وفى ذلك الموقف أظهر صلاح الدين ثباتا يسترعى الانتباه، إذ استدعى على وجه السرعة جيشه المرابط فى مصر، وأنزل هزيمة ساحقة بخصومه عند تل السلطان-على الطريق بين حلب وحماه-فى أواخر أبريل سنة ١١٧٦. وكانت الضربة التى أنزلها صلاح الدين بخصومه قاسية، إذ قتل منهم كثيرين، واستولى صلاح الدين على "أموال وذخائر، وفرش، وأطعمة وتحف، تجل عن الوصف". واتبع صلاح الدين تلك الضربة بأن قطع طريق المواصلات بين حلب والموصل، فاستولى على قلعتى بزاعة ومنبج إلى الشمال الشرقى من حلب.

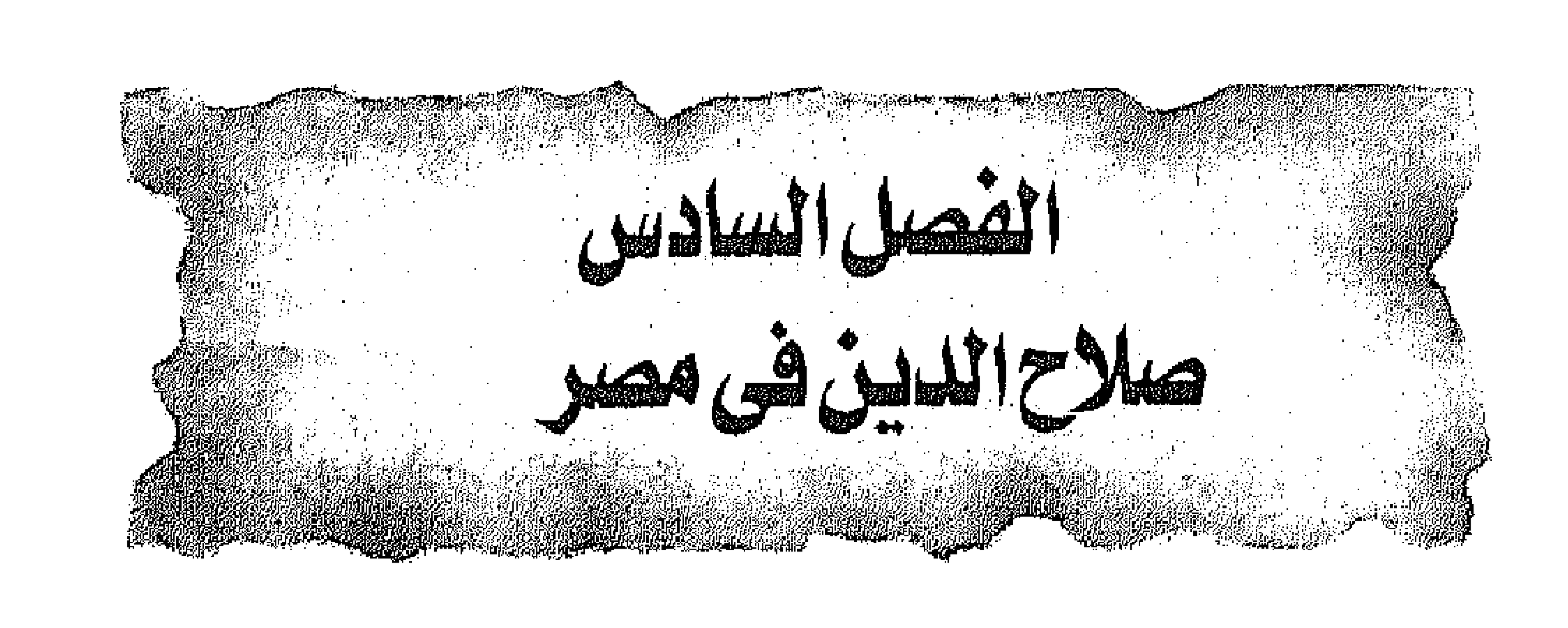
وقد تميزت حركة صلاح الدين بعد موقعة تل السلطان بالأحكام والسرعة، فقرر البدء بالاستيلاء على حلب بوصفها حلقة الوصل بين شمال العراق وشمال الشام. وما كاد يفرغ من الاستيلاء على عزاز حتى انصرف بكل قواه تجاه حلب التى أبدت العناد وقاومت جيوش صلاح الدين مقاومة عنيفة، جعلته يوافق على الصلح.



أما الباطنـية فلم يكونوا أقل من الصليبيـين تخوفا من سيـاسة صلاح الدين فى بلاد الشام. وقـد حاولوا عدة مرات قتل صـلاح الدين، وأصابوه إصابات خطـرة أكثر من مـرة، ولكـن الله سلم؛ ولذا ما كـاد صلاح الدين يفرغ من الصلح مع حلب حتى اتجه لحصار مـصياف-المركز الرئيسى للباطنية فى بلاد الشام- ليقابلهم على ما فعلوه من الوثوب عليه". وقد اشتد صلاح الدين فى ضرب البـاطنية "وأوسعهم قـتلا وأسرا"، وساق أبقـارهم وضرب ديارهم"حتى شفع فيـهم شهاب الدين محمود الحـارمى صاحب حماه-وهو خال صلاح الدين.

وفى تلك الأثناء لم يتوقف الصلـيبيون عن مـهاجمة ممتلكات صـلاح الدين والحيلولة دون نشر نفوذه فى بلاد الشام. وقد بذلوا جهـودا متواصلة-وخاصة سنة ١١٧٦-لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب، ولكنهم كانوا يرتدون إلى قواعدهم إذا أحسوا باقتراب صلاح الدين منهم. وهكذا قضى صلاح الدين تلك الحلقة من عمره فى الجهاد على مسرح بلاد الشـام، حتى عاد إلى القاهرة فى نهاية ديسمبر ١١٧٦ تاركا خلفه فى دمشق أخـاه توران شاه.





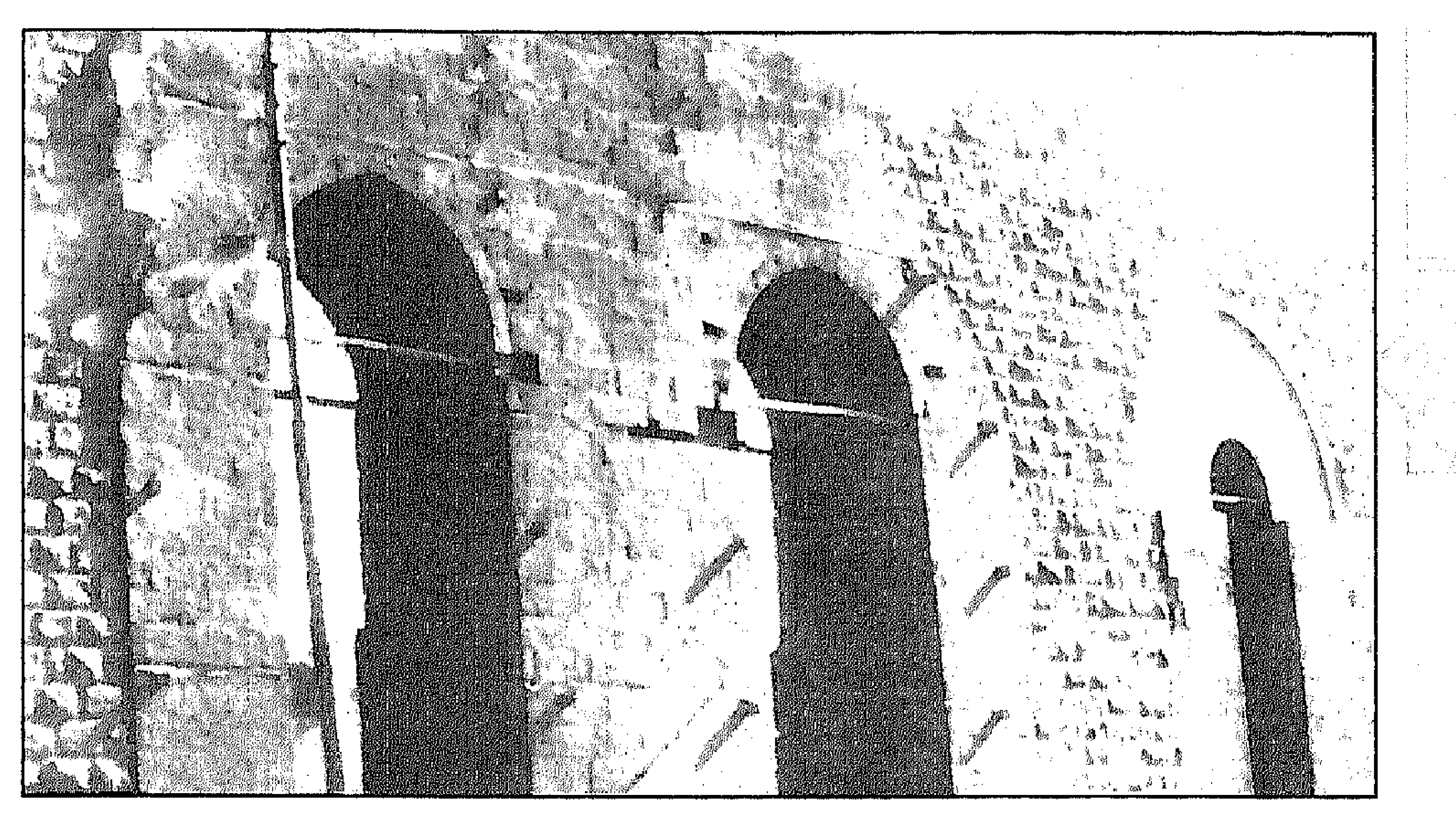
الفصل السادس
صلاح الدين فى مصر

عـاد صلاح الدين إلى القـاهرة فى أواخر سنـة ١١٧٦ بعد أن قـضى فى بلاد الشام قـرابة عامين عمل فيهـما على التصدى لهجمات خصومه الثلاثة: الزنكيـين والباطنية والصليبيين. وقـد قضى صلاح الدين فى مصر بضعة أشهر عاد بعدها إلى بلاد الشام ليستأنف جهوده فى بناء الجبهة الإسلامـية المتحـدة من جهة، ويتـصدى لأعدائه -الزنكيـين والباطنيـة والصليبيـين- ويحول دون هجماتهم العدائية على البلاد والمدن التى دخلت تحت لوائه من جهة أخرى.

وكما هو واضح، كانت المدة الزمنـية التى قضاها صلاح الدين فى مصر عند حـضوره إليها هـذه المرة قصيرة، قضاها فى تحصين البلاد، مما يثير الظنون بأنه كان يخشى خطرا تتعرض له مصر من جانب الأعـداء؛ ذلك أنه قام خلال هذه المدة بإقـامة عدد من المـنشآت الدفاعـية وعنى بوجه خاص بتحصين القاهرة والإسكندرية، مما يشـير إلى أنه كان يضع الخطر الخارجى فى المرتبة الأولى من حساباته.

وكان أن أثبتت حوادث الأيام صدق حسـابات صلاح الدين؛ ذلك أن أنباء الانتصارات التى حقـقهـا صلاح الدين فى الميـدانين الإسـلامى والصليبى فـضلاً عن أنبـاء جهـوده فى بناء جبـهة إسلامية. . كل هذه الأنباء أثارت قلق الصليبيـين فى الشرق، ودعاة الحروب الصليبية فى الغرب. وفى دوامة الأقوال والإشاعات جاءت سنة ١١٧٧ حملة صليبية صغيرة على رأسها فيلب الألزاسى كونت فلا نردد، فى حين أرسل الإمبراطور البيزنطى مانويل الأول سفارة إلى بيت المقدس تعرض على ملكها بلدوين الرابع إحياء فكرة اشتراك الطرفين فى القيام بحملة صليبية لغزو مصر، ولكى يكسب الإمبراطور البـيزنطى عرضه صفـة جدية، بادر بإرسال أسطول من سبعـين سفينة إلى عكا تمهيدا للغزو المنتظر.

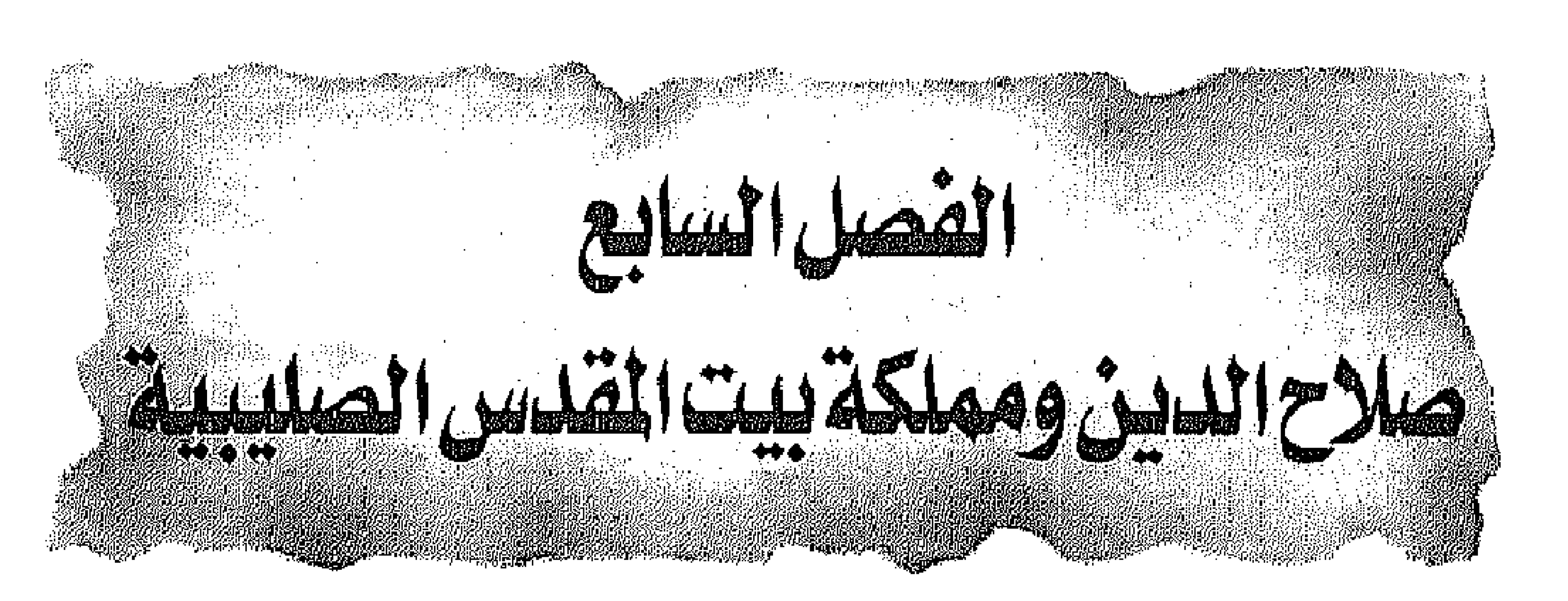
ولا شك فى أن أخبار ما كان يجرى فى الجبهة المسيحية لضرب صلاح الدين سببت له قدرا كبـيرا من القلق، بعـد أن غدا يتحـمل مسئـولية حمـاية مصر والدفـاع عنها. ويفـسر هذا القلق التحصينات التـى بادر صلاح الدين بإقامتها على مخـتلف جبهات مصر حـتى لا يتخذها الأعداء طريقاً لغزوها. ومن أبرز هذه التحصينات التخطـيط والشروع فوراً فى بناء قلعة حصينة على جبل المقطم، لصد أى هجوم متوقع على القاهرة. وقد نسبت هذه القلعة إلى صلاح الدين حيناً، وإلى



سور مجرى العيون الذى بناه صلاح الدين متصلا بالقلعة

الجبل الذى شيدت عليه أحياناً. وعندما زار الرحالة ابن بطوطة مكان القلعة أثناء زيارته مصر سنة ١١٨٣ وصفها بأنها "حصن حصين المنعة". وفى نفس الوقت شرع صلاح الدين فى بناء سور ضخم حول القاهرة ومصر، واستعمل فى بنائه الحجر الجيرى المأخوذ من الأهرام، وأشرف على بناء القلعة والسور بهاء الدين قراقوش. وفى فبراير ١١٧٧ (٥٧٢هـ) غادر صلاح الدين القاهرة لتفقد تحصينات دمياط والإسكندرية فقضى يومين فى دمياط وبضعة أيام فى الإسكندرية تفقد فيها الأسطول وأمر بإصلاح بعض السفن المتآكلة، ووفر لهذه الإصلاحات ما يلزم من الأخشاب والحدايد، كما أمد الأسطول بالرجال والمقاتلين.

قلعة الجبل - القاهرة

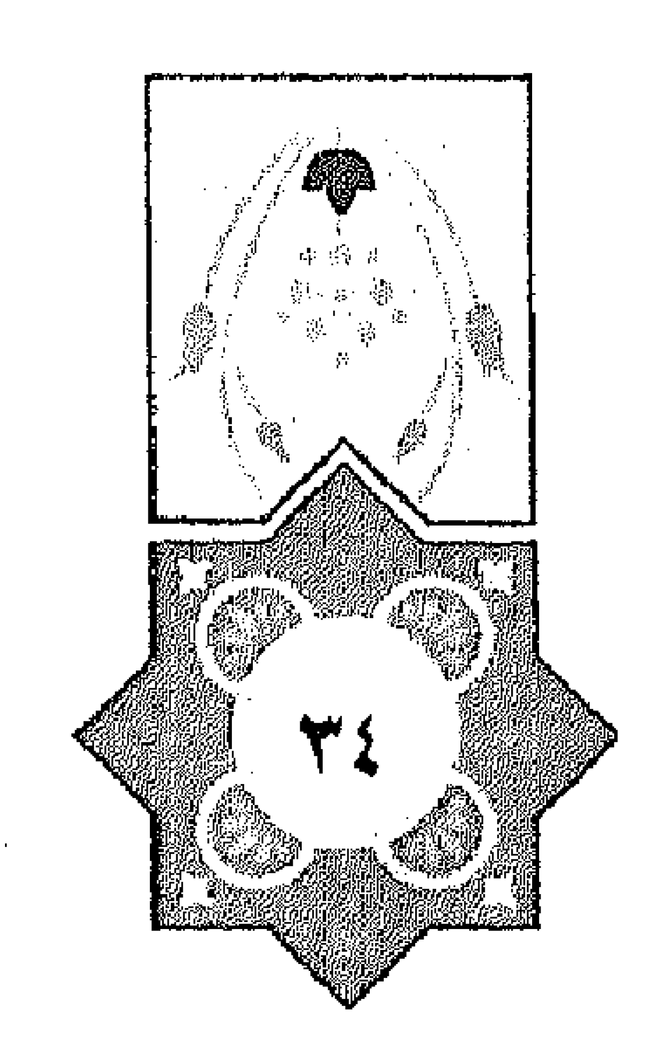


الفصل السابع
صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية

وعندما أدرك صلاح الدين فشل المشروع الصليبى لغزو مصر، رأى أن يقوم هو بغزو مملكة بيت المقدس منتهزاً فرصة تغيب جيش هذه المملكة فى شمال الشام ليشارك فيليب الألزاسى فى هجماته الفاشلة على حماه وحارم. وكان على صلاح الدين أن يسرع فى حركته ليحقق أغراضه قبل عودة الجيش الصليبى من شمال الشام، فغادر العريش فى أواخر نوفمبر ١١٧٧ واختار أن يبدأ بمهاجمة الموانى الواقعة على الشواطئ الجنوبية لبلاد الشام مثل الداروم وغزة، ولما رأى أن الداوية فى غزة أعدوا عدتهم لمواجهة صلاح الدين، وأنهم حصنوا قلعتهم لتحول دون تقدمه، اتجه نحو عسقلان مما تسبب فى إثارة مخاوف مملكة بيت المقدس التى لم يكن فيها عندئذ سوى نحو خمسمائة فارس. على أن بلدوين الرابع ملك الصليبيين فى بيت المقدس أظهر إصراراً على التصدى لصلاح الدين، رغم المتاعب الداخلية والخارجية التى أحاطت به، فخرج إلى عسقلان على رأس ما تيسر له جمعه من رجال الدين والفرسان، ومع ذلك فإن الملك بلدوين وقع فى خطأ كبير عندما تعجل فى دخول عسقلان؛ لأنه أتاح فرصة لكي يحصره أعداؤه داخل المدينة، وبذلك صارت الجبهة الصليبية فى بقية بلاد الشام بلا ملك أو جيش يكفى لردع صلاح الدين.

ومن ذلك المركز الجديد لصلاح الدين فى جنوب بلاد الشام، أخذت جيوش المسلمين تخرج للإغارة على المدن والقلاع والمعاقل الصليبية، فأحرقوا الرملة، وهاجموا اللد، وسيطر جيش صلاح الدين على الطريق بين أرسوف ونابلس، ولما "رأوا الفرنج خامدين انبسطوا واسترسلوا وتوسط السلطان (صلاح الدين) البلاد".

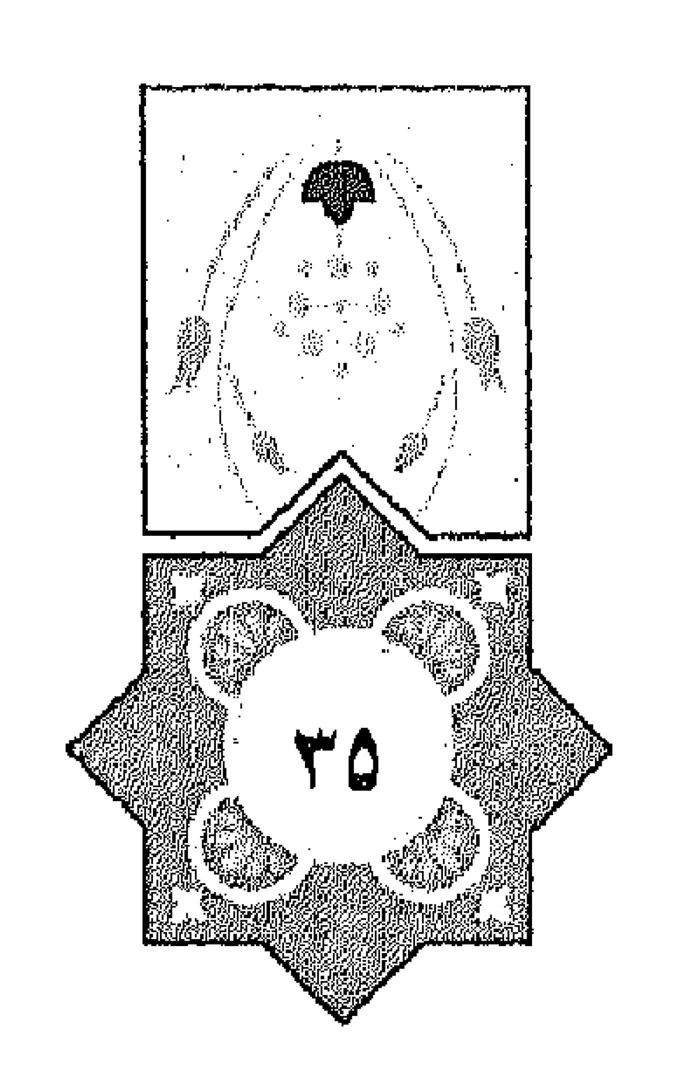
المسجد الأقصى فى بيت المقدس- وقد امتلأ بالصلبان إبان الاحتلال الصليبى



على أنه حـدث أن شغل المسلمـون بالغنائم "وانبـسطوا وساحـوا فى الأرض آمنين مطمئنين" ، وعندئذ انتهـز بلدوين الرابع الفرصة، وشق طريقه إلى خارج عـسقلان. وسـرعان ما اجـتمعت حول مـلك بيت المقدس فلول الصليبيـين، وحاميات المدن والحصـون القريبة، وباغتـوا قوات صلاح الدين حتى أنزلوا به هزيمة عند تل الصافية. ولم يستطع صلاح الدين نفسه النجاة من ذلك الخطر المفاجئ إلا فى صعوبة بالغة، فـوصل القاهرة فى ٨ ديسمبر ١١٧٧ "وحلف لا تضرب لـه نوبة حتى يكسر الفـرنج" على قول أبى شـامة، أما الملك الـصليبى بلدوين الرابع، فـقد أسـرع عـقب توزيع الغنائم على رجـاله بمطاردة القـوات الإسلامـية حـتى عسقلان، ثم قفل راجعا إلى بيت المقدس فدخلها دخول الأبطال.

ولا شك فى أن الضربة التى أنزلها الصليبيون بصلاح الدين فى تل الصافية دعمت مركزهم وأعادت الثـقة إلى قلوبهم، فأخـذوا يشنون الغارات على المسلمين فـى شمال الشام، ويدعـمون نفوذهم فى جنوبه: من ذلك مـا يرويه ابن الأثير من هجوم الصليبيـين على إقليم حمـاه ثم على إقليم شيـزر فى صيف ١١٧٨ فنهبوا وضربـوا القرى وأحرقوا وأسروا وقـتلوا" . أما فى الجنوب، فقد شـرع بلدوين الرابع فى تحصين مملكة بيت المقـدس ضد أى هجوم متـوقع عن طريق دمشق، فشيد قلعة جديدة قرب بانياس عند بيت يعـقوب بمكان يعرف بمخاضة الأحزان، وهى القلعة التى عرفت فى نهاية الـقرن الثالث عشر باسم حـصن جسر بنات يعقوب. وعندمـا عاد صلاح الدين إلى الشام فى ربيع سنة ١١٧٨ لم يحاول وقف بناء الحصن المذكور، وإنما قال: «إذا أتموا نزلنا عليه وهدمناه إلى الأسـاس». وهكذا تمكن الصليبيـون من إقـامة حـصن بيت الأحزان، وعهـد الملك بلدوين الرابع إلى فرسان الـداوية بالدفاع عنه ليظل مركزاً «لقطع الطرقات عـلى قوافل المسلمين». وعندما أحس صلاح الدين بمدى الخطر الذى حاق بالمسلمين نتـيجة لإقامة هذا الحصن، طلب من الصليبـيين هدمه، ولكنهم طلبوا الـنفقات التى بذلوها فى تشـييده، فعرض صـلاح الدين عليهم ستين ألف ديناراً مقابل هدمه؛ ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف دينار، ولكنهم رفضوا الهدم.

ثم حدث فى أبريل سنة ١١٧٩ أن خرج بعض الدماشقة لرعى مواشيهم فى المراعى القريبة من بانياس، فـتصـدى لهم واشتبك مـعهم الصليـبيون بـقيادة بلدوين الرابع ملـك بيت المقدس، وهمفرى صاحب حـصن بانياس. وكان على رأس القوات الإسلامية عـز الدين فرخشاه ابن أخى صلاح الدين. وكان صـلاح الدين عندئذ بدمشق، فخرج لمساعدة ابن أخـيه ودارت بين المسلمين والصليبيين معركة انتصر فيهـا فريق صلاح الدين، فى حين أصيب الأمير همفرى إصابة أدت إلى وفاته «وكـان يضرب به المثل فى الشجـاعة والرأى فى الحرب وكـان بلاء صبه الله عـلى المسلمين فأراحهم الله من شره على قول ابن الأثير».



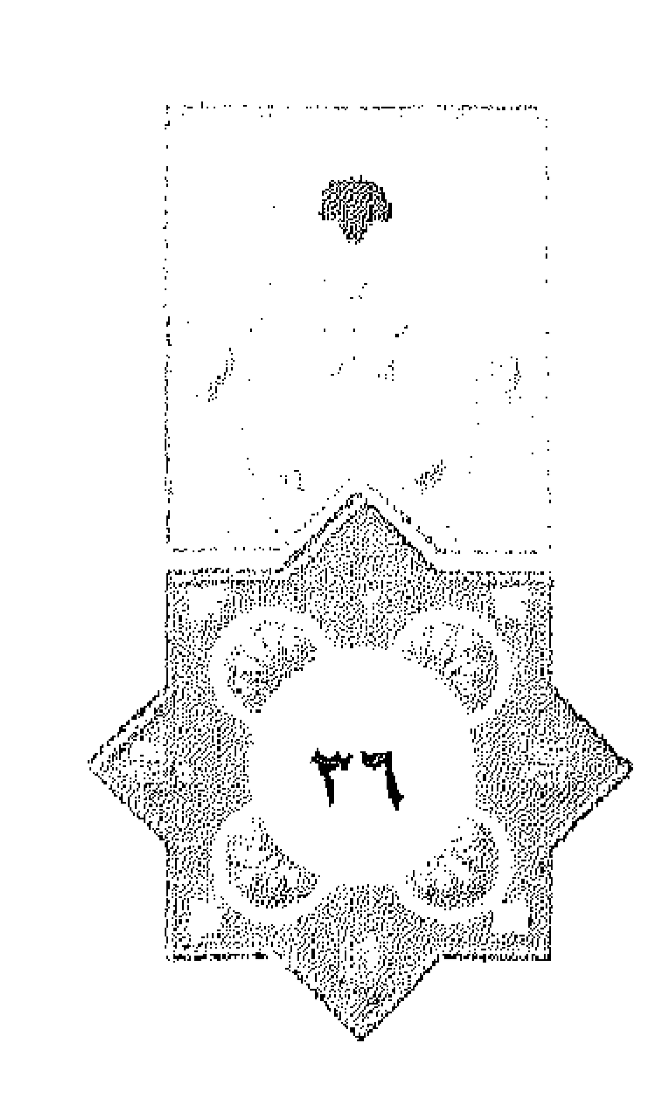
وما كاد يتم هذا النصر حتى شرع صلاح الدين مباشرة (مايو ١١٧٩) فى حصار حصن بيت الأحزان.

وقد اتخذ صلاح الدين معسكره عند تل القاضى-غربى بانياس-ومن ذلك المركز وزع قواته للدفاع عن حماه وحمص وشمال الشام ضد أى عدوان من جانب بوهيموند الثالث أمير إنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس، فى حين دأب صلاح الدين نفسه على طلب المدد من أخيه العادل فى مصر. وكان صلاح الدين «يركب كل يوم بحجة الصيد، ويجرد العساكر وقبائل العرب إلى صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو» على قول ابن واصل.

وكان أن استبد القلق بالملك بلدوين الرابع نتيجة لتحرش صلاح الدين بالكيان الصليبى فى بلاد الشام، فجمع الملك قواته وقرر ضرب صلاح الدين فى معركة فاصلة. وفى ١٠ يونيو سنة ١١٧٩ دارت موقعة بين الطرفين فى سهل مرج العيون بين المسلمين بقيادة صلاح الدين والصليبيين بقيادة الملك بلدوين الرابع. وفى هذه الموقعة حقق صلاح الدين نصرا حاسما، ووقع فى الأسر عدد من أمراء الصليبيين، فى حين نجا بلدوين الرابع بصعوبة.

ومرة أخرى تجمعت عناصر المقاومة الصليبية لتثأر من صلاح الدين، هذا فى حين وصلت إلى بيت المقدس مجموعة لها وزنها من الفرسان الفرنسيين، مما بث فى الصليبيين بالشام روح العزم والحماسة. وقد عمل صلاح الدين حسابا لكل هذه الاعتبارات، فاكتفى مؤقتا بالاستيلاء على حصن بيت الأحزان فى أغسطس سنة ١١٧٩ (وذلك بعد قتال وحصار، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة، وشيئا كثيرا من الأقوات وغيرها، وأسر نحو السبعمائة، وضرب الحصن حتى سوى به الأرض)، على قول المقريزى. وكان ذلك فاتحة لأن يتابع صلاح الدين انتصاراته على الصليبيين فى سرعة تسترعى الانتباه، بحيث تعذر على الصليبيين ملاحقته، ذلك أنه أعقب تدمير حصن الأحزان بالإغارة على أقاليم صور وصيدا وبيروت، حتى أن الأسطول خرج من الموانى المصرية فى أكتوبر سنة ١١٧٩ ليهاجم عكا التى كانت قاعدة صليبية كبرى، أطلق عليها أبو شامة اسم (قسطنطينة الفرنج)، تشبيها لها بمدينة القسطنطينية حاضرة الدولة البيزنطية.

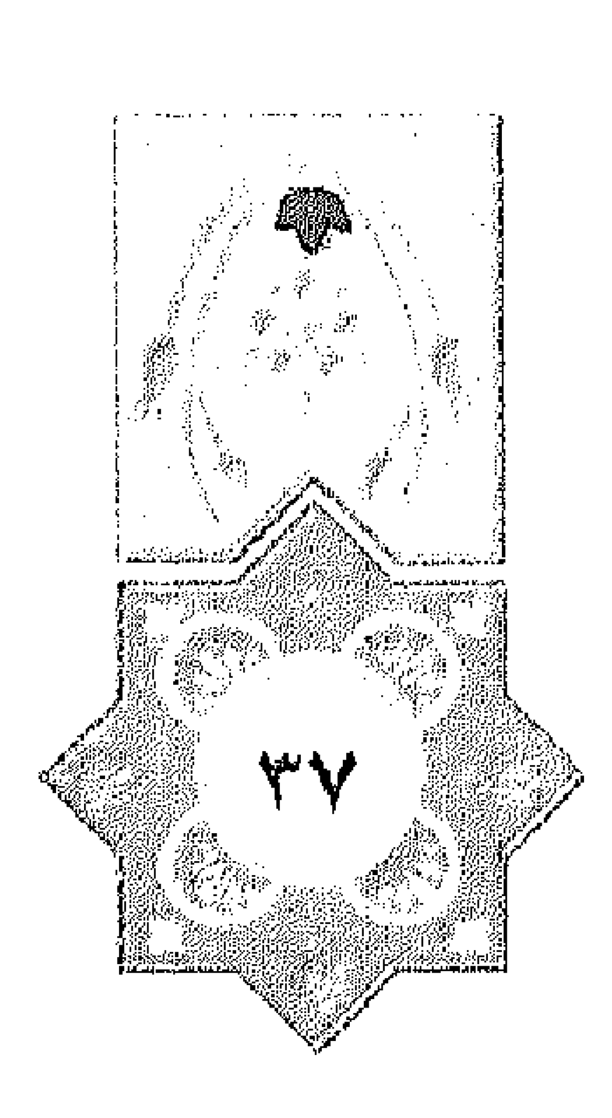
وإزاء هذه الضربات التى أنزلها صلاح الدين بالمراكز الصليبية، لم يسع الملك بلدوين الرابع سوى أن يطلب الهدنة، ووافق صلاح الدين على ذلك فى مايو ١١٨٠، وهنا نلاحظ أن هذه الهدنة عقدت بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية ممثلة فى شخص ملكها بلدوين الرابع، بمعنى أنها لا ترتبط ببقية القوى الصليبية فى بلاد الشام، مما جعل صلاح الدين فى حل من مهاجمتها. وفعلاً هاجمت قوات صلاح الدين إمارة طرابلس، كما عاد الأسطول المصرى إلى مياه



الشام فى يونيو ١١٨٠ ليهاجم انطرطوس ولينزل بها كثيرا من الخسائر، مما اضطر ريموند الثالث أمير طرابلس إلى عقد هدنة مشابهة مع صلاح الدين.

ومهما يكن من أمر تلك الحملات التى شنها صلاح الدين على الصليبيين فى ذلك الدور، فإن الظاهرة الواضحة أنها لا تعبر عن الطاقة الكاملة لصلاح الدين فى موقفه منهم. والغالب فى نظرنا أن صلاح الدين أراد أن يدخر طاقته للحرب الشاملة التى تستهدف كسر شوكة الصليبيين وتطهير الأرض العربية فى الشرق الأدنى من أولئك الدخلاء الغاصبين.

المساجد الأثرية والنواعير بمدينة حماه – سورية

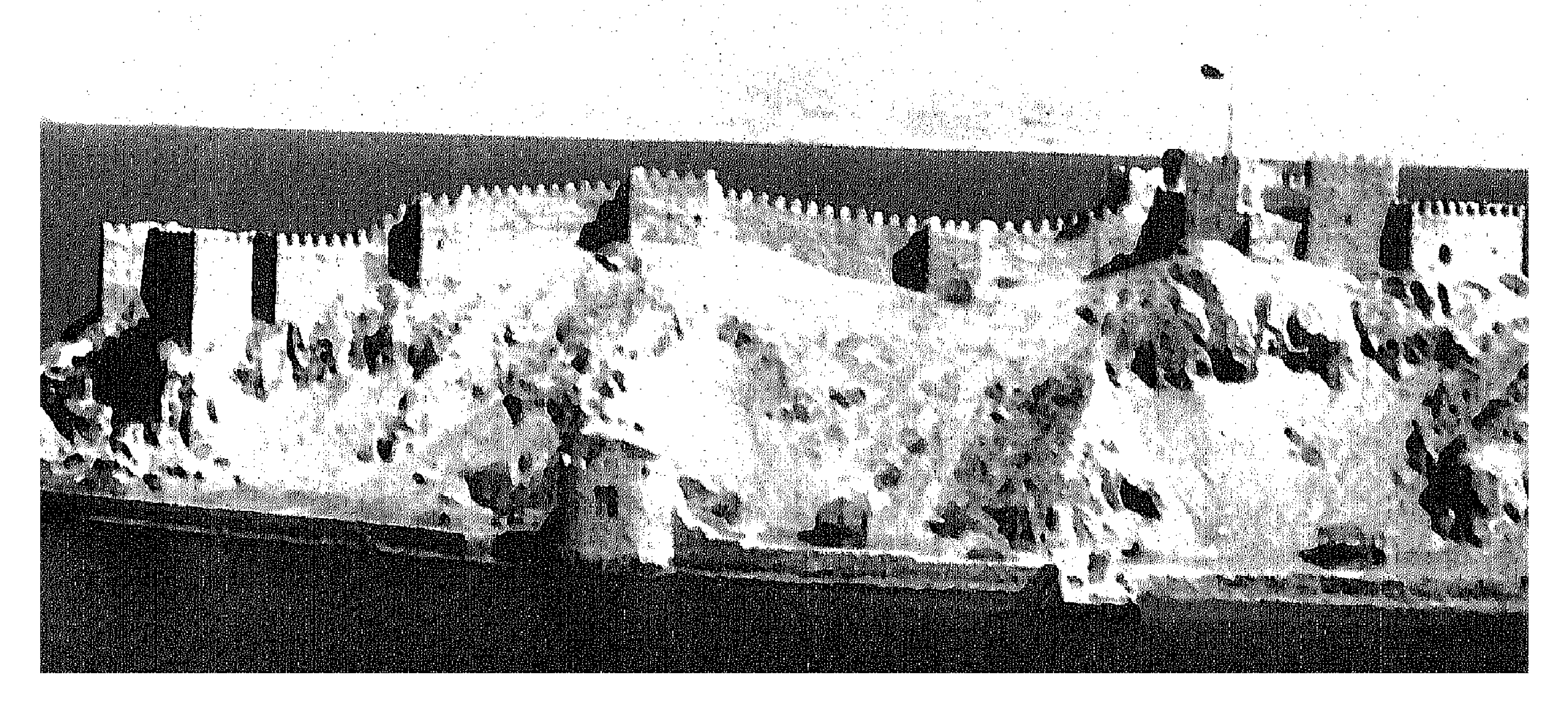


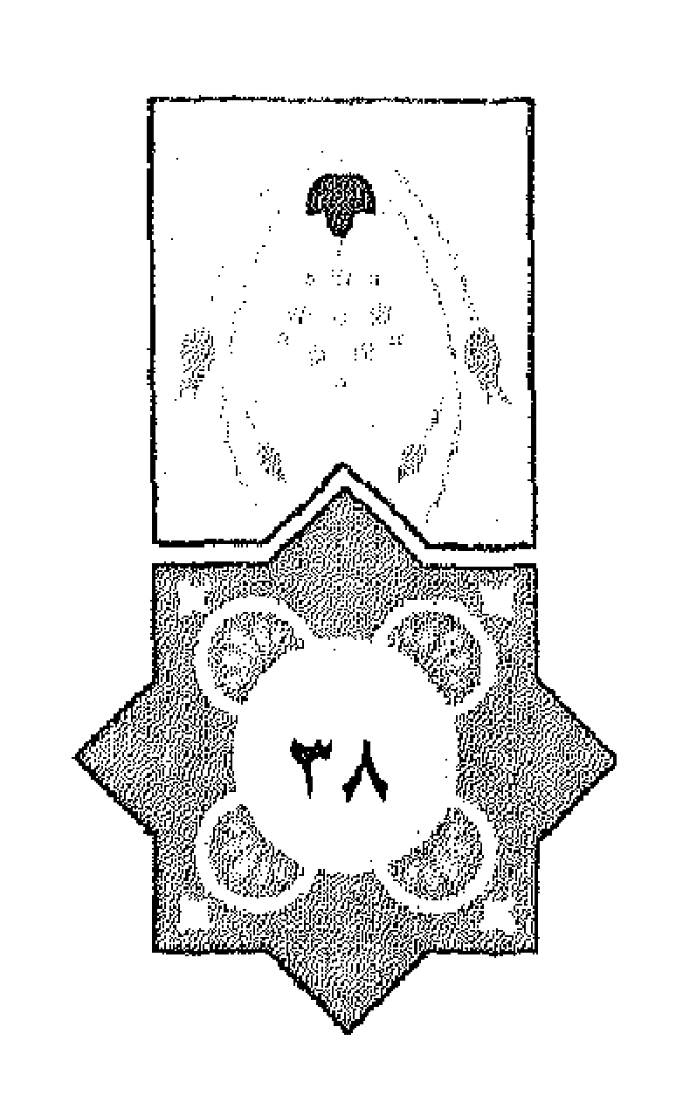
الفصل الثامن
صلاح الدين وتحصين مصر
(١١٨١-١١٨٢)

يلاحظ المتتبع لتاريخ صلاح الدين أنه قضى الحلقة الأخيرة من حياته(١١٨١-١١٩٣) فى حركة دائبة بين مصر والشام، وبين الجناحين الشرقى والغربى من دولته التى تفاقمت مشاكلها وثقلت مسئولياتها يوما بعد يوم. وكان صلاح الدين يعرف، تماما أن مشاكل الوحدة الإسلامية من جهة، ومشاكل الجهاد من جهة أخرى، مع تعدد ميادين كل منها، لن تمكنه من الإقامة طويلاً فى ركن من أركان دولته التى امتدت، فى صورة أو أخرى من شمال العراق وإقليم الجزيرة إلى وادى نهر النيل.

وهكذا شغل صلاح الدين فى عام ١١٨٠ بالخطر الصليبى فى شمال الشام-وبخاصة إقليم طرابلس-وفى نفس الوقت قام الأسطول المصرى بمهاجمة أنطرطوس. ثم عاد إلى القاهرة لينظر ويبت فى بعض المشاكل الداخلية. ولا شك فى أن صلاح الدين أخذ يحس فى تلك المرحلة بعظم الأمانة التى يحملها فى عنقه، فأخذ ينظم شئون الحكم، ويقسم العمل بين أعوانه، حتى قال عنه المقريزى أنه أخذ يستبد بالسلطنة. وفى الوقت نفسه أخذ صلاح الدين يتصدى لعناصر الضعف والخيانة، فأصدر أوامره بالحوطة على عربان الشرقية وشمال الدلتا.

قلعة صلاح الدين - سيناء - قرب شرم الشيخ





وفى خريف سنة ١٨٨١ استقبل صلاح الدين سفارة من قبل إمبراطور الروم-أى الدولة البيزنطية-لإقرار الصلح بين الطرفين، وبمقتضى هذا الصلح تعهد الإمبراطور بعدم تقديم أية معونة للصليبيين.

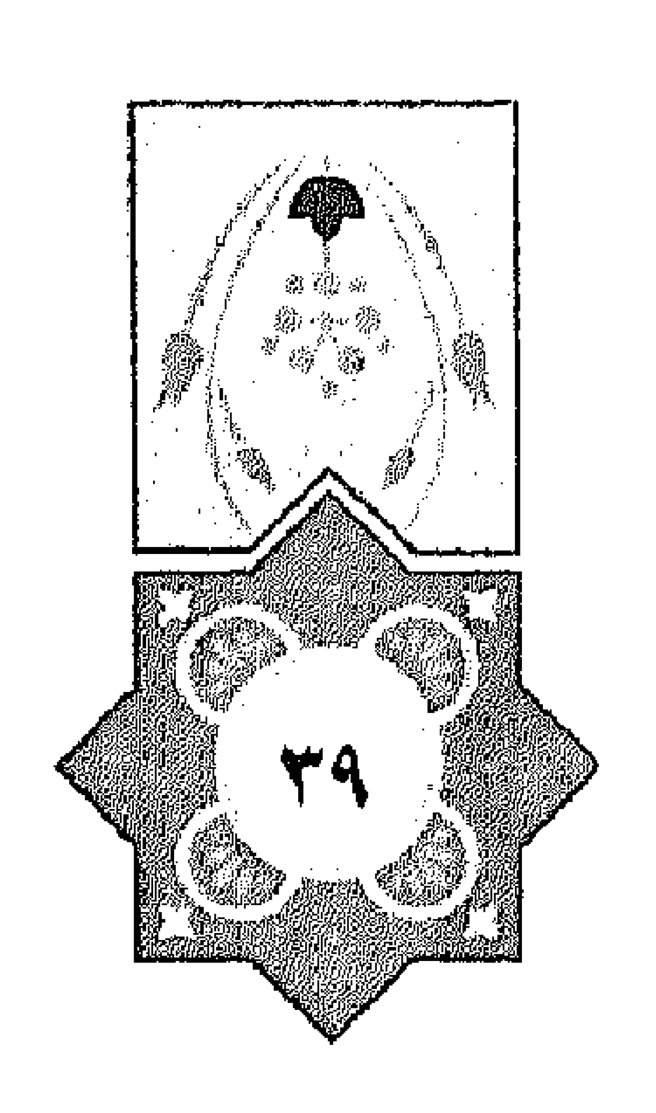
أما فى مجال التحصينات، فقد اهتم صلاح الدين بتحصين ميناء تنيس بعد أن اعتدت عليه سفن الصليبيين، وترميم سور دمياط وإصلاح المآصر وهى السلاسل الحديدية التى تحول دون دخول سفن العدو مجرى النيل، كما زار الإسكندرية ودعم وسائل الدفاع عنها. وفى تلك الأثناء عنى صلاح الدين بإعادة تنظيم الجيش وإعداده للمعركة المتوقعة مع الصليبيين.

على أن اضطراب الأوضاع الداخلية فى الكيان الصليبى حالت دون قيام الصليبيين بعدوان سريع على صلاح الدين. وزاد من سوء أحوال الكيان الصليبى تفاقم مرض بلدوين الرابع ملك بيت المقدس من جهة واضطراب الأوضاع فى إمارة إنطاكية الصليبية من جهة أخرى، فضلاً عن وفاة الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين من جهة ثالثة.

وكان أن ظهر على مسرح الأحداث عندئذ شخصية فارس فرنسى مغامر-رينو دى شاتيون الذى عرفه العرب باسم أرناط-ليتزعم الصليبيين فى الشام ضد الكيان الإسلامى. وقد اتصف أرناط هذا بالحماسة لفكرة ضرب المسلمين وخرق كل الاتفاقيات السابقة التى عقدت بين الجانبين. وعلى الرغم من أن ارناط قضى فى أسر المسلمين سنين طويلة (١١٦٠-١١٧٧) إلا أنه خرج من الأسر سنة ١١٧٧ دون أن يفقد شيئاً من رعونته وعدائه المرير للإسلام والمسلمين. وكان أن امتلك أرناط عقب إطلاق سراحه-حصنى الكرك والشوبك، وهما من الحصون الشهيرة فى جنوب الشام، ويتحكمان فى طرق القوافل بين مصر والشام والحجاز. ومن هذا الموقع الحساس أوغل أرناط سنة ١١٨١ فى صحراء العرب حتى وصل إلى تيماء فى منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة. وكان ينوى الزحف على المدينة وتدميرها، لولا مطاردة المسلمين له فاضطر إلى الانسحاب والعودة فوراً.

وهكذا أعاد أرناط فتح باب الصدام بين صلاح الدين والصليبيين مما جعل صلاح الدين يرسل إلى ملك بيت المقدس يلومه على ما حدث من أرناط وينذره بسوء العواقب. ولكن الملك الصليبى رد على صلاح الدين يعلمه أن أرناط رفض الانصياع له.

وكان هذا الرد كفيلاً بفتح باب الحرب بين صلاح الدين والصليبيين.

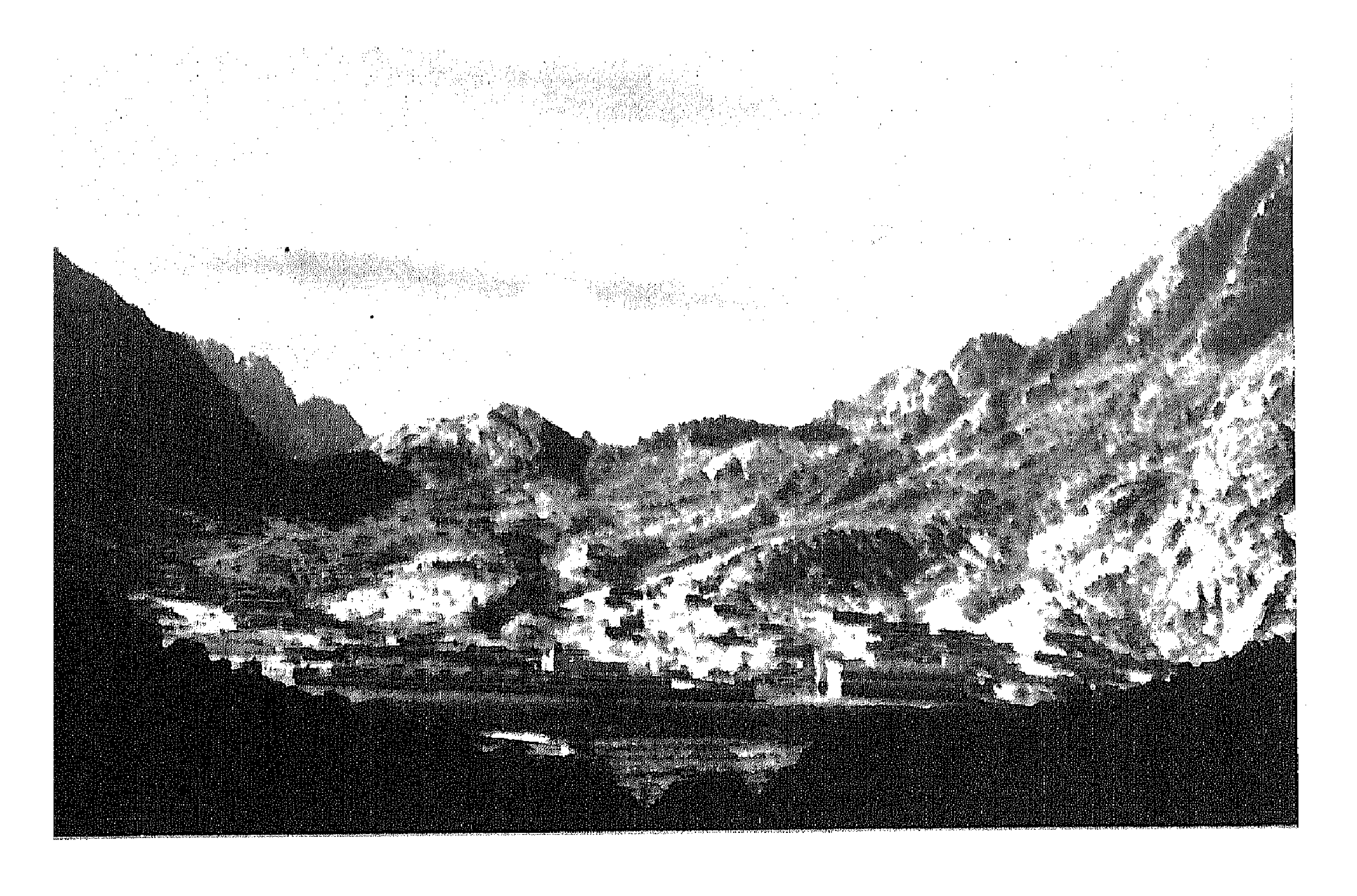


الفصل التاسع
انتصار الوحدة وقيام الجبهة الإسلامية المتحدة

ساءت الأوضاع على الجبهة الإسلامية فى الشمال-وبخاصة فى الموصل وحلب-فى الوقت الذى استأنف أرناط سياسة التهديد والعدوان فى جنوب الشام ١١٨١ ويبدو أن صلاح الدين رابط فى مصر عندئذ لتخوفه عليها من عدوان صليبى جديد، على أن صلاح الدين لم يتخل عن فكرة إقامة جبهة إسلامية متحدة تجمع بين القوى الإسلامية المتنافسة، وخاصة عندما تأكد من أن بعض الأطراف الإسلامية (كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى قصد الثغور الإسلامية ليشغلوا السلطان "صلاح الدين" عن قصدهم). وعندئذ أيقن صلاح الدين أن توحيد صفوف المسلمين فى شمال الشام والعراق يجب أن يسبق أية محاولة مثمرة ضد الصليبيين.

وكان أن غادر صلاح الدين مصر ليتجه أولاً ضد حلب. وبعد أن نازلها ثلاثة أيام، رأى أنه من الأصوب أن يبدأ بمهاجمة الموصل، فزحف على إقليم الجزيرة حيث استولى على الرها وحران والرقة وسروج ونصيبين (سبتمبر-أكتوبر ١١٨٢). وفى أوائل ديسمبر شرع فى حصار الموصل، ولكنه لم يفلح فى الاستيلاء عليها، فانصرف عنها. وفى ذلك الدور، سمع صلاح الدين بأن هناك اتصالات سرية تدور بين الصليبيين من جهة والزنكيين فى حلب والموصل من جهة أخرى للقيام بعمل مشترك ضد صلاح الدين، وأن المواصلة (واصلها الفرنج مواصلة أخلصوا فيها الضمائر، ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر) على قول أبى شامة وابن شداد. ونجم عن هذه الاتصالات أن جمع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس قواته، وخرج ومعه البطريق وصليب الصلبوت، للإغارة على الجهات الواقعة جنوبى دمشق، كما أغاروا (سبتمبر ١١٨٢) على منطقة بصرى فى إقليم حوران. وانتقل الصليبيون بعد ذلك إلى إقليم السواد على الضفة الشرقية لبحيرة طبرية حيث استولوا على قلعة حبيس جلدك التى كان صلاح الدين قد استردها قبل ذلك بعدة أشهر.

وبينما يواصل الصليبيون بزعامة ريموند الثالث أمير طرابلس والملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس إغاراتهم حول أقاليم حوران وطبرية وبصرى (١١٨٢-١١٨٣)، كان صلاح الدين يقوم بنشاطه فى إقليم الجزيرة وشمال بلاد الشام، فاستولى على حلب فى يونيو ١١٨٣، وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية تحت رئاسته من جبال طوروس شمالاً حتى النوبة جنوباً.



جبل الطور - سيناء - مصر

هكذا جمع صلاح الدين بين القاهرة ودمشق وحلب، وبذلك ربط بين أطراف الجبهة الإسلامية المتحدة، وتمكن من الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون التى جعلت من أرض المسلمين فى الشرق الأدنى وحدة متماسكة. هذا فضلاً عن شبكة الحمام الزاجل التى قامت بدور خطير من ربط أجزاء الدولة الإسلامية بعضها ببعض.

ولاشك فى أن صلاح الدين أحس فى النصف الأخير من عام ١١٨٣ بأنه غدا سيد الموقف فى منطقة الشرق الأدنى، وأنه يستطيع منازلة الصليبيين لطردهم من الأرض العربية التى وفدوا من غرب أوروبا لاحتلالها واستغلال مواردها.

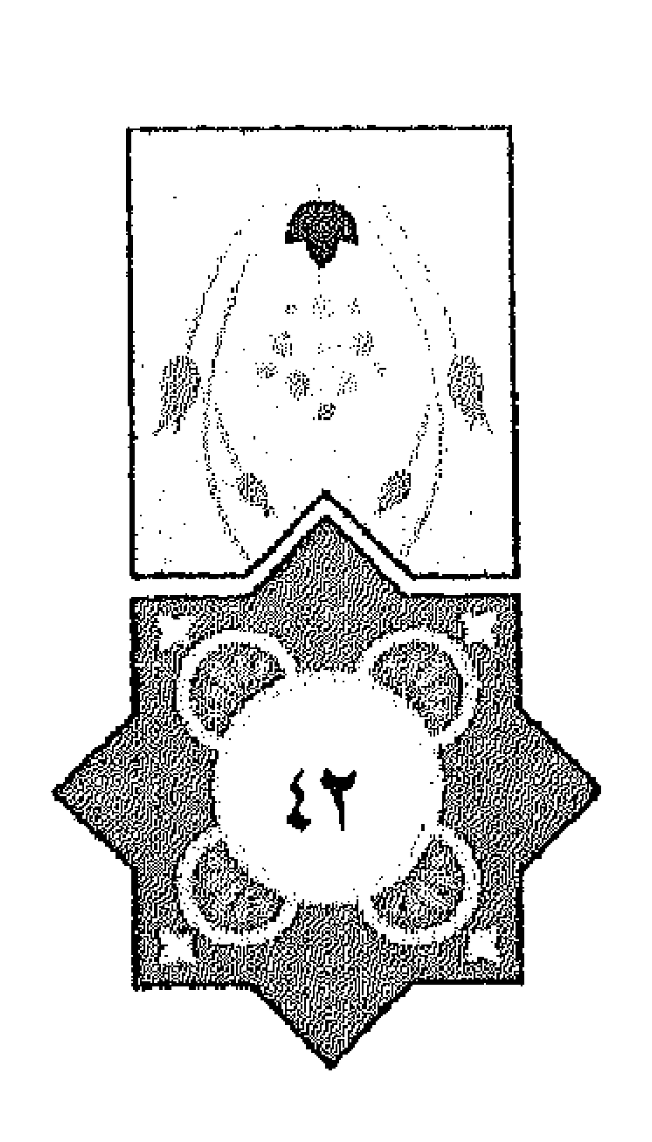
وفى تلك الأوقات الحرجة التى أخذ صلاح الدين يضيق الخناق على ممتلكاتهم فى بلاد الشام، اشتد المرض على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس حتى بلغ به حد العجز عن الحركة فى فراشه، وعندئذ أناب عنه صهره جاى لوزجنان فى الوصاية على المملكة وتدبير أمورها. وجاء هذا الاختيار غير موفق نظراً لما عرف عن جاى لوزجنان من ضعف واهتزاز الشخصية. وعند الفولة- قرب عين جالوت-وقف الجيشان-جيش صلاح الدين والجيش الصليبى كل يرقب الآخر(أكتوبر ١١٨٣).

رسم يصور حرق

الأسطول الذى غزا

المدينة

مدينة عكا



ويبدو أن صلاح الدين حاول عندئذ أن يستدرج خصومه فى معركة فاصلة، فبدأ بالإغارة على المواقع الصليبية القريبة.

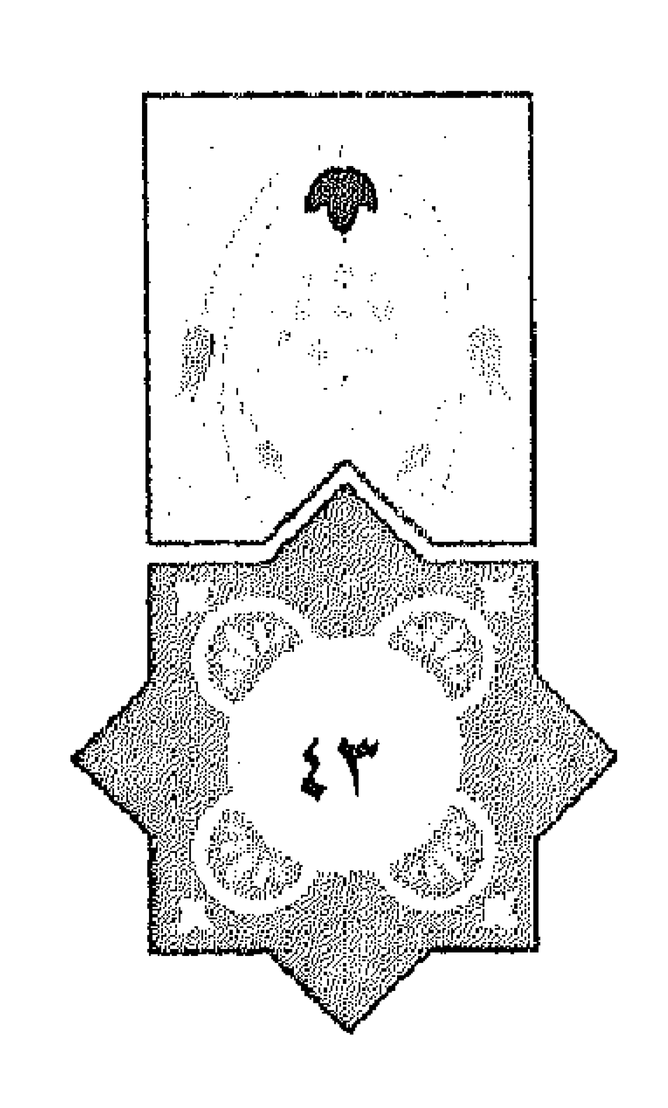
وأخيرا لجأ صلاح الدين إلى جبل الطور، وهو جبل قريب، حتى يتعقبه الصليبيون فيباغتهم بضربة قاصمة، ولكنهم فوتوا عليه تلك الفرصة، وارتدوا إلى قواعدهم، وعندئذ لم يبق أمام صلاح الدين إلا أن يعود إلى دمشق، فوصلها فى منتصف أكتوبر ١١٨٣ بعد أن قتل وأسر العديد من الصليبيين.

حطين-واسترداد بيت المقدس:

على أن أرناط صاحب حصن الكرك لم يفطن إلى ما ترتب على خطورة قيام وحدة بين المسلمين امتدت من أعالى الشام إلى النيل بالنسبة للصليبيين، وخاصة مملكة بيت المقدس. وبدلاً من أن يحاول تهدئة صلاح الدين ووضع حد لغضبه، إذا بأرناط يضع مشروعاً خطيراً سنة ١١٨٢ يستهدف تحقيق سيادة صليبية على البحر الأحمر وتنفيذ مشروع غزو الحرمين لطعن المسلمين فى صميم مقدساتهم.

وهكذا باشر أرناط نشاطه ليمتد من الكرك إلى خليج العقبة، وواصل إغاراته على الموانى المصرية الصغيرة على البحر الأحمر، حتى وصلت سفنه إلى ميناء عيذاب على الشاطئ الغربى للبحر، فى مواجهة جدة. ولم يكتف أرناط بقطع الطريق على السفن التجارية وسفن الحجاج، وإنما نقل نشاطه إلى الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر وشرع فى الزحف فعلاً فى اتجاه المدينة المنورة لتخريبها.

ولم يكن منتظراً من صلاح الدين أن يتباطأ فى مواجهة هذا الخطر، فأصدر تعليماته السريعة إلى أخيه العادل فى مصر، وتم على وجه السرعة إعداد أسطول فى البحر الأحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ الذى اقتفى آثار الصليبيين من ضفة إلى أخرى. وظل يطاردهم حتى وقعت فلولهم-على مقربة من المدينة المنورة، بين قتلى وأسرى (فبراير ١١٨٣). أما صلاح الدين نفسه فقد خرج من دمشق لمحاصرة حصن الكرك، ولكن الحصن كان على درجة من القوة جعلته يصمد أكثر من مرة أمام هجمات صلاح الدين.



ومن ناحية أخرى، فإن صلاح الدين-وخاصة بعد هجمات أرناط العدوانية-ازداد إيماناً بفكرة الجبهة الإسلامية المتحدة لضرب الصليبيين ضربة قاضية. وكانت مشاكل الصليبيين قد تفاقمت نتيجة للصراع بين أمراء مملكة بيت المقدس حول الفوز بالعرش، بعد وفاة ملكها بلدوين الخامس، وقد برز فى حلقة هذا الصراع أميران هما جاى لوزجنان وريموند الثالث. وعندما تم تتويج جاى لوز جنان ملكاً أرسل ريموند إلى صلاح الدين يطلب منه المساعدة ضد خصومه.

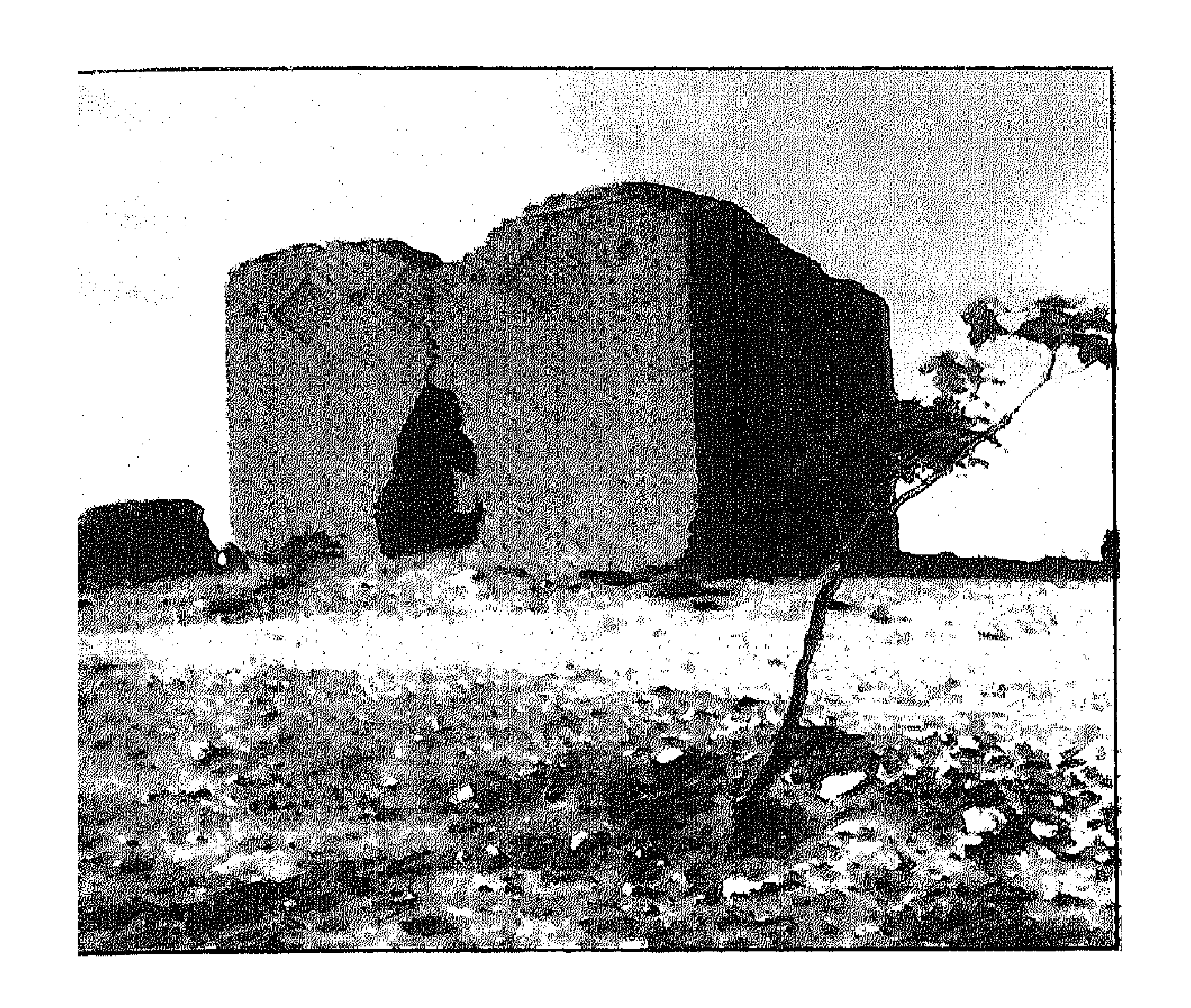
وهكذا انقسم الصليبيون على أنفسهم. وشاءت حماقة أرناط أن تثير شرخاً جديداً مع المسلمين بدلاً من محاولة رأب الصدع، فاستغل موقع حصن «الكرك» للتصدى للقوافل بين مصر والشام. وعندما طلب منه صلاح الدين إطلاق «سراح الأسرى والأموال» (١١٨٦-١١٨٧)، رد أرناط على رسل صلاح الدين قائلاً: «قولوا لمحمد يخلصكم».

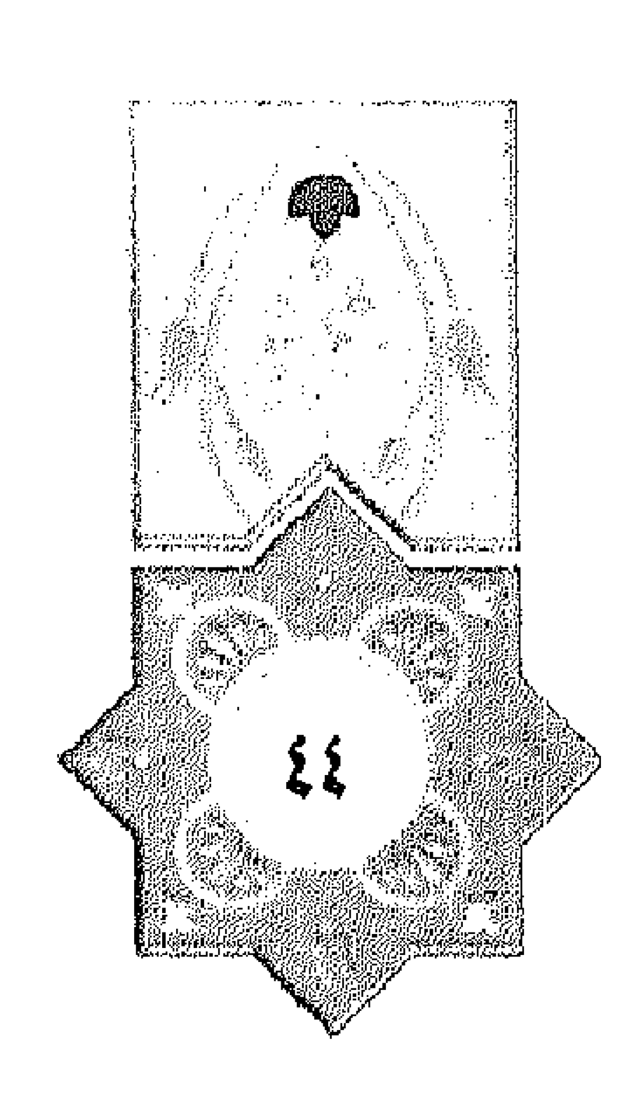
وفى تلك المرحلة الحرجة من مراحل العداء بين الصليبيين والمسلمين، اختار الصليبيون صفورية-قرب عكا-مركزاً لتجمع قواتهم، فى حين كان صلاح الدين فى إقليم الجليل قرب طبرية، يسعى ليجبرهم على المسير إليه ليكون التعب قد استبد بهم فيتغلب عليهم فى غير عناء.

وكان أن زحف صلاح الدين على رأس جيشه على طبرية فى يوليو ١١٨٧، واقتحمت جيوشه المدينة فأحرقتها، وعندئذ ثارت ثائرة الصليبيين وقرروا المسير إلى طبرية لإنقاذها وضرب

معركة حطين- مخطوط صليبى للحملة الصليبية وتصدى صلاح الدين
(مرسوم سنة ١٢٥٠م محفوظ فى كمبردج- إنجلترا)

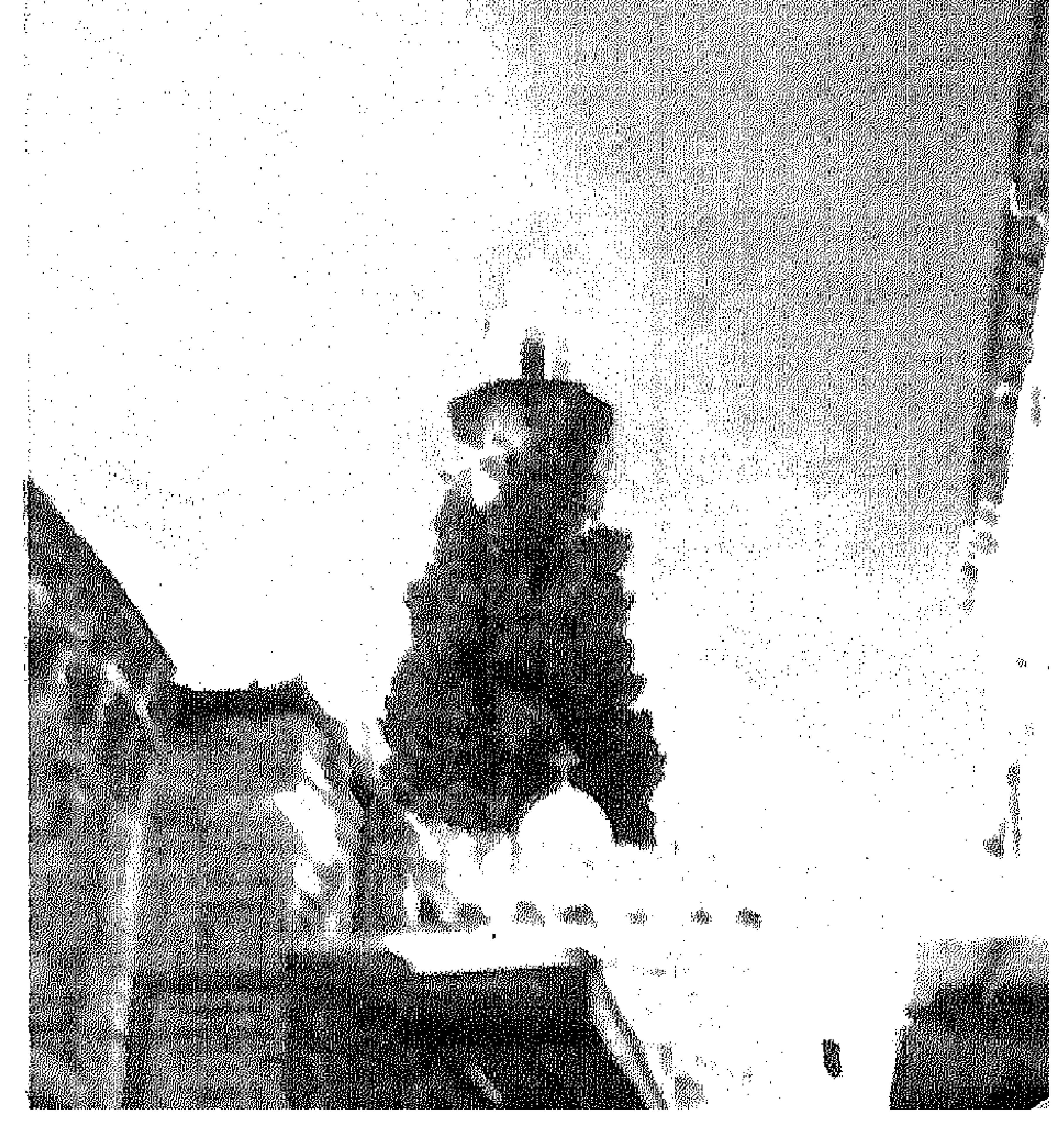




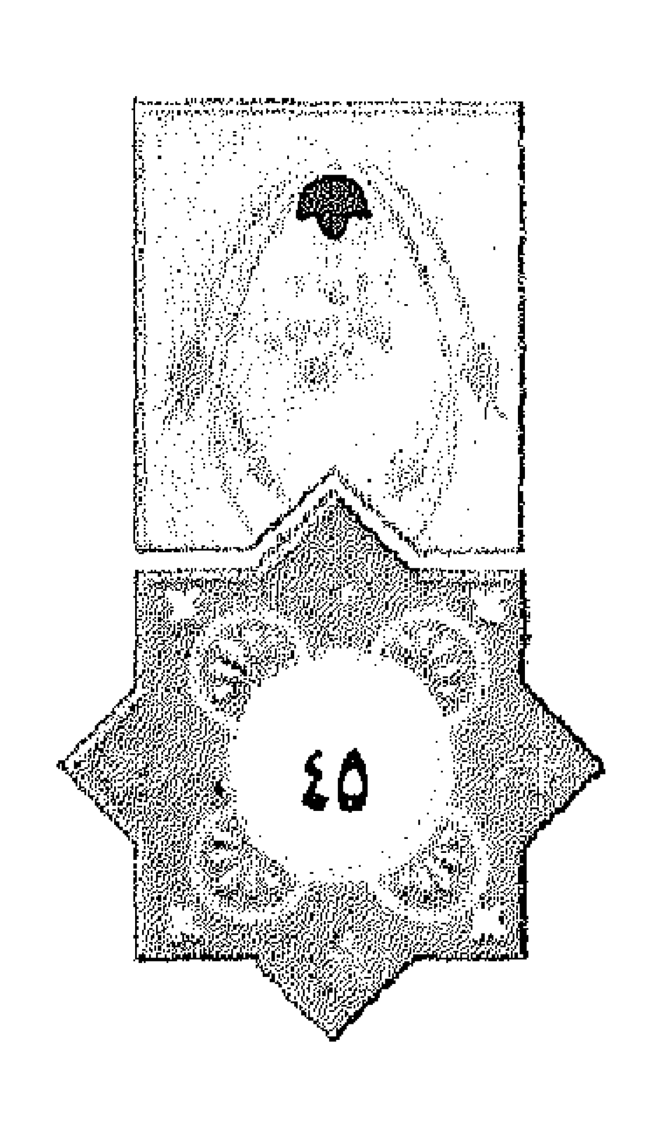


نصب تذكارى موقع
معركة حطين

صلاح الدين. وبذلك نجح صلاح الدين فى تنفيذ خطته، إذ عانى الصليبيون الكثير من وعورة الطريق وحرارة الجو مع قلة الماء للشرب، بينما صلاح الدين ينعم مع قواته عند طبرية بالظل والراحة والماء. وأخيراً وصل الصليبيون إلى هضبة طبرية وهم يتساقطون من التعب ويئنون من الحرارة والعطش. وما كاد يحل ٤ يوليو ١١٨٧، إلا وكان جيش صلاح الدين قد أحاط بالصليبيين «إحاطة الدائرة بقطرها». وكان المسلمون يتقدمون وأمامهم الصليبيون يتراجعون نحو قمة الجبل. وهكذا حتى سقط الجيش الصليبى بأكمله بين أسرى وقتلى. وكان من جملة الأسرى الملك جاى لوجنان، وأرناط صاحب حصن الكرك ومقدم الداوية.. وغيرهم، فسيقوا جميعاً مكبلين إلى حيث



مئذنة مسجد عمر بن الخطاب تطل على
أسوار كنيسة القيامة



يجلس صلاح الدين فى خيـمته، ومنها نقلوا إلى دمشق حـيث حبس الأمراء وبيع عامة الفرسان والجند فى أسواق الرقيق.

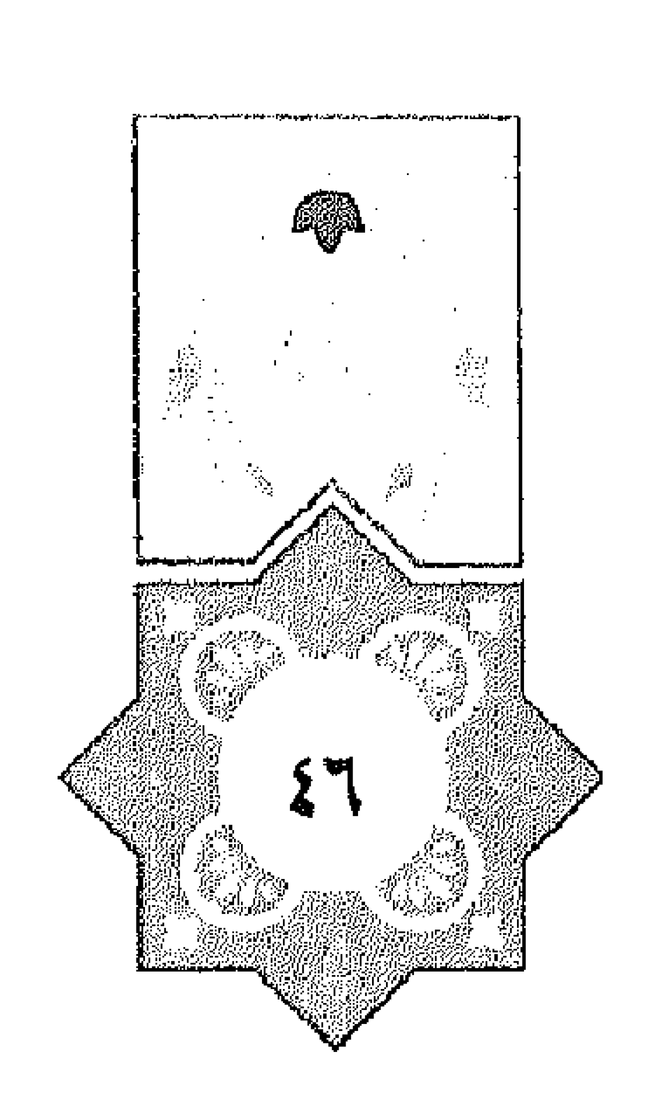
ومن هذا يبدو أن حطين كـانت أكبر من مجرد مـوقعة حربية خـاضها صلاح الدين ضد الصليبيين. لقد كـانت بداية النهاية بالنسبة للكيان الصليبى فى بلاد الشرق. لقد تغير ميزان القوى بعد حطين، وصار على الصليبيين أن يقوموا بدور الدفاع بعد أن كانوا غزاة مهاجمين، وبذلك تم القضاء على أكبر حركة استيطانية شهدتها العصور الوسطى.

أما بالنسبة لصلاح الدين فقد كان تصرفه بعد حطين نموذجاً لمن يحرص على التمسك بآداب الإسلام وأخلاقه؛ ذلك أنه تجنب فى سلوكه تجاه الصليبيين القسوة والتطرف، وتحلى دائما بأخلاق التسامح والرحمة.

وكان المتوقع من صلاح الدين فى خطوته التالية أن يتجه فورا نحو بيت المقدس نظرا لما لهذه المدينة من أهميـة ومكانة، ولكنه خيب ظن الجـميع عندما اخـتار عقب حطين أن يتـجه إلى عكا وموانى الشام ليـقطع الطريق على وصول إمدادات من الغرب الأوروبى إلى الصليـبيين عن طريق البحر. وعند دخـول صلاح الدين عكا فى العاشر من يوليو سنة ١١٨٧، أحسن مـعاملة من كان فيها من الصليـبيين (ووهب لهم عصمة الأنفس والأمـوال) على قول ابن واصل. ومن عكا وجه صلاح الدين قـواته للاستـيلاء على المراكز الصليـبية المجـاورة، فى الوقت الذى قام العـادل أخو صلاح الدين بالاستيلاء على الموانى والثغور الساحلية التى كانت بأيدى الصليبيين.


قلعة عكا





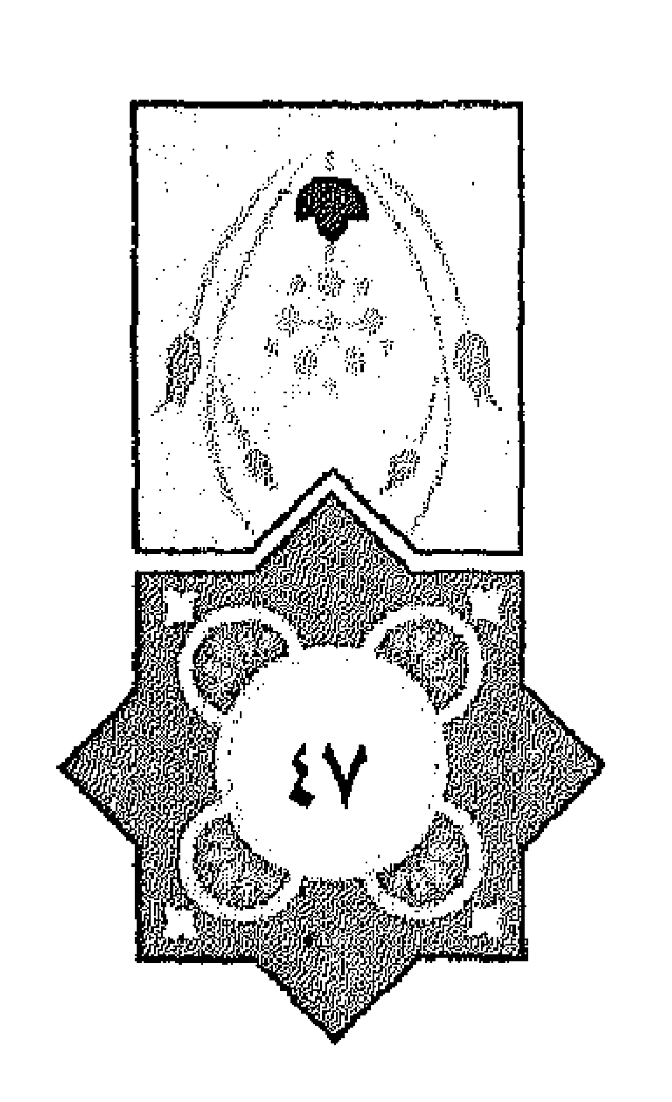
وبعد أن أمن صلاح الدين موقفه داخل بلاد الشام، رأى أن دور بيت المقدس قد حان، فاتجه إليها وحاصرها، وسمح لمن فيها من أمراء الصليبيين ونسائهم بالخروج منها آمنين. وكان يخير النازحين فى اختيار الجهة التى يرغبون فى الاتجاه إليها، فاختار معظمهم النزوح إلى صور-ربما لاعتقادهم أنها أكثر أمنا وأنه من الممكن الإبحار منها إلى غرب أوروبا.

وفى ٢٠ سبتمبر ١١٨٧ بدأ الهجوم الشامل على بيت المقدس، وكان أشد ما يعانيه الصليبيون قلة المحاربين من الرجال المقاتلين. وعندما أحكم صلاح الدين حصاره للمدينة، سعى بعض أمراء الصليبيين فى الصلح، فوافق صلاح الدين فى إطار سياسته التى اتسمت دائماً بالتسامح على أن يسمح لهم بمغادرة المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، وواحد للطفل. وفى يوم الجمعة ١٢ أكتوبر دخل صلاح الدين بيت المقدس. وشاء الله أن يوافق هذا اليوم فى التاريخ الهجرى السابع والعشرين من شهر رجب، وهى ذكرى ليلة المعراج التى أسرى الله فيها ليلاً بنبيه الكريم ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وقد أظهر صلاح الدين تسامحاً كبيراً وخاصة مع فقراء المسيحيين الذين عجزوا عن دفع الجزية. وكانت دهشة الجميع كبيرة عندما رأوا هرقل-بطريق بيت المقدس يدفع لنفسه الدنانير العشرة ويغادر المدينة حاملاً ما استطاع حمله من الذهب والفضة. ومن خلفه عدة عربات تحمل نفائس الكنيسة. وقد رفض صلاح الدين أن يتعرض للأموال التى حملها البطريرك معه، وقال: «لا أغدر به». كذلك رفض صلاح الدين التعرض بسوء لكنيسة القيامة، استجابة لبعض رفاقه، وقال: «عندما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه القدس فى صدر الإسلام، أقرهم على المكان، ولم يأمر بهدم البنيان».

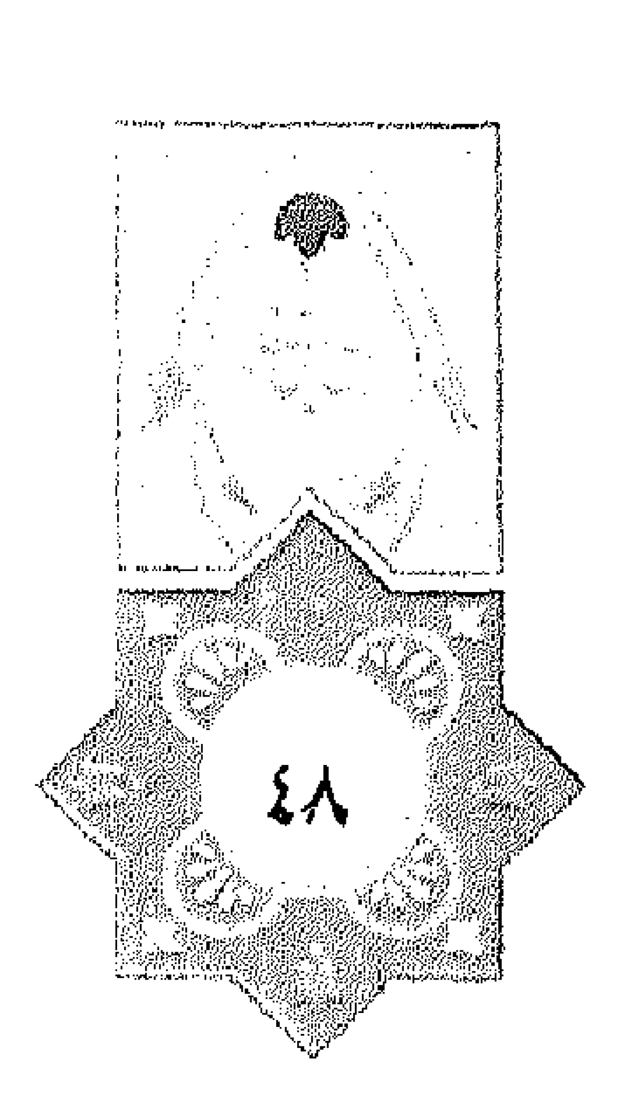
وجدير بالذكر أن اليهود كانوا أول من هلل لجلاء الصليبيين عن بيت المقدس. وذكر بعض المعاصرين أن فتح صلاح الدين لبيت المقدس أعقبته هجرة عدد كبير من اليهود إليها. ولم يحاول صلاح الدين أن يمنع اليهود من الإقامة فى المدينة. **وهكذا تحرص الصهيونية دائماً على أن تحقق مكاسبها على حساب المسلمين والمسيحيين سواء.**

على أن سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين لم يشكل النهاية بالنسبة لحركة الجهاد التى تزعمها هذا البطل؛ ذلك أنه واصل جهوده فى شمال بلاد الشام وجنوبها، فهاجم (١١٨٨-١١٨٩) بعض القلاع التابعة لإمارتى إنطاكية وطرابلس فى الشمال. وفى جنوب الشام استسلم حصن الكرك ثم حصن الشوبك. ولم يستعص على صلاح الدين إلا القليل، مثل مدينة صور التى غدت ملجأ لعديد من اللاجئين الذين استولى المسلمون على قلاعهم ومدنهم وحصونهم.



وهكذا استطاع صلاح الدين أن يحقق عملا ضخما فى السنوات القليلة التى أعقبت حطين، ففى مستهل سنة ١١٩٠ لم يبق من حطام مملكة بيت المقدس إلا مدينة صور، ومن إمارة طرابلس سوى عاصمتها طرابلس وقلعة انطرطوس وحصن الأكراد وبعض الأماكن الأخرى الساحلية، ومن إمارة إنطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب. وبذلك يكون البناء الصليبى الضخم قد انهار سريعا قبل أن ينقضى على قيامه قرن واحد من الزمان. ومهما تعددت أسباب هذا الانهيار فإن علينا أن نذكر الدور الذى نهض به صلاح الدين فى حركة الجهاد، وما امتاز به هذا البطل من قدرة على التخطيط وبعد نظر فى الحكم على الأمور وشجاعة مقرونة بالتعقل والاعتدال والمثابرة.

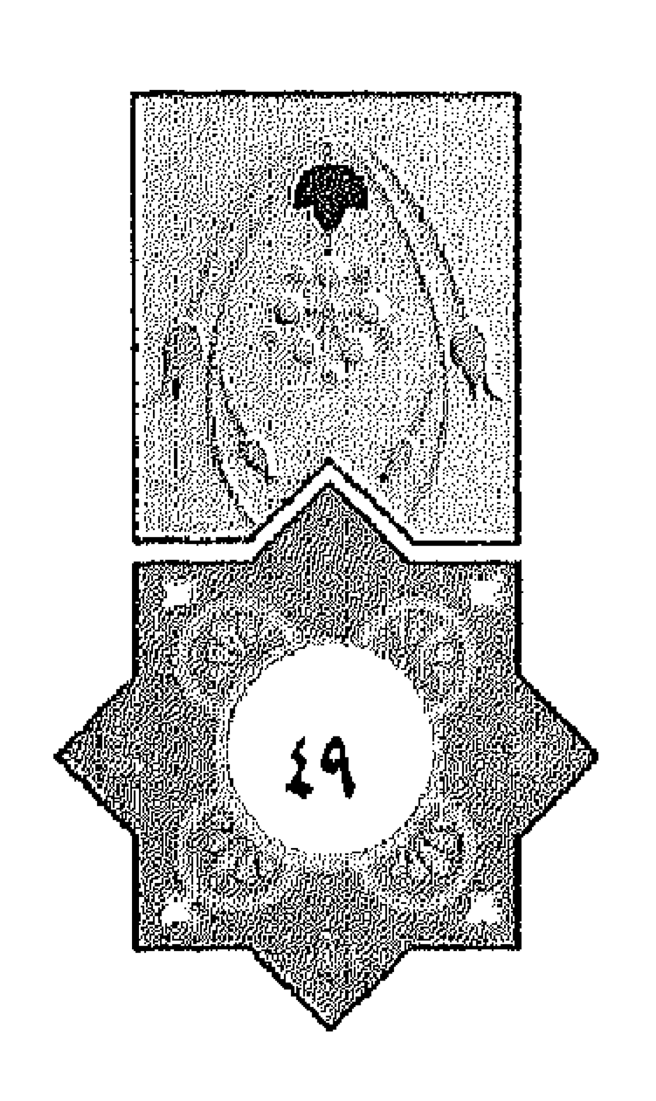
ومن ناحية أخرى، فقد كان للهزائم التى حلت بالكيان الصليبى على يد صلاح الدين صدى كبير فى غرب أوروبا، الأمر الذى ترتب عليه تجمع الحملة الصليبية الثالثة بزعامة فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا. ويبدو أن المحاربين على الجبهة الإسلامية كان قد اعتراهم التعب نتيجة لطول أمر القتال؛ ولذا فإن قدرتهم على مواصلة الحرب تناقصت، ولجأ صلاح الدين إلى دعوة حكام المسلمين-فى المشرق والمغرب لمشاركته فى محاربة العدو. ومرة أخرى وجد صلاح الدين نفسه فى موقف صعب أمام جيوش أكبر الدول فى غرب أوروبا. وإذا كان الإمبراطور فردريك بربروسا قد قدر له أن يموت غريقاً فى أحد أنهار آسيا الصغرى، بحيث لم يصل من جيوشه إلى الشام إلا القليل، فإن فيليب أوغسطس ملك فرنسا قام بمحاصرة عكا بمساندة الأساطيل البحرية التى واكبت الجيوش البرية وعندئذ أدرك صلاح الدين أن المعركة ليست معركة عكا، وإنما هى معركة المواجهة المرتقبة بين المسلمين والمسيحيين فى ساحة الحرب الصليبية. وأمام ذلك الخطر ليس من الحكمة أن يضحى بجيوشه أمام عكا ويترك بقية بلاد المسلمين من المحيط إلى بحر العرب دون قوة تحميها وتدافع عنها؛ ولذا دخل صلاح الدين فى محادثات لتسليم عكا وانتهى الموقف بتسليم عكا للصليبيين فدخلوها فى يوليو سنة ١١٩١، بعد أن حصروها قرابة عامين. وكان لاستيلاء الصليبيين على عكا رد فعل كبير فى العالم الإسلامى، إذ عم الحزن المسلمين فى المشرق والمغرب(وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام الناس من العقلاء فى إنا لله وإنا إليه راجعون..) حسبما ذكر المؤرخ أبو شامة فى كتابه الروضتين.



صلاح الدين وريتشارد:

لم تطل إقامة فيليب أوغسطس فى بلاد الشام، إذ اعتذر بالمرض وأبحر إلى غرب أوروبا فى أغسطس ١١٩١، وبذلك ترك مهمة تصفية

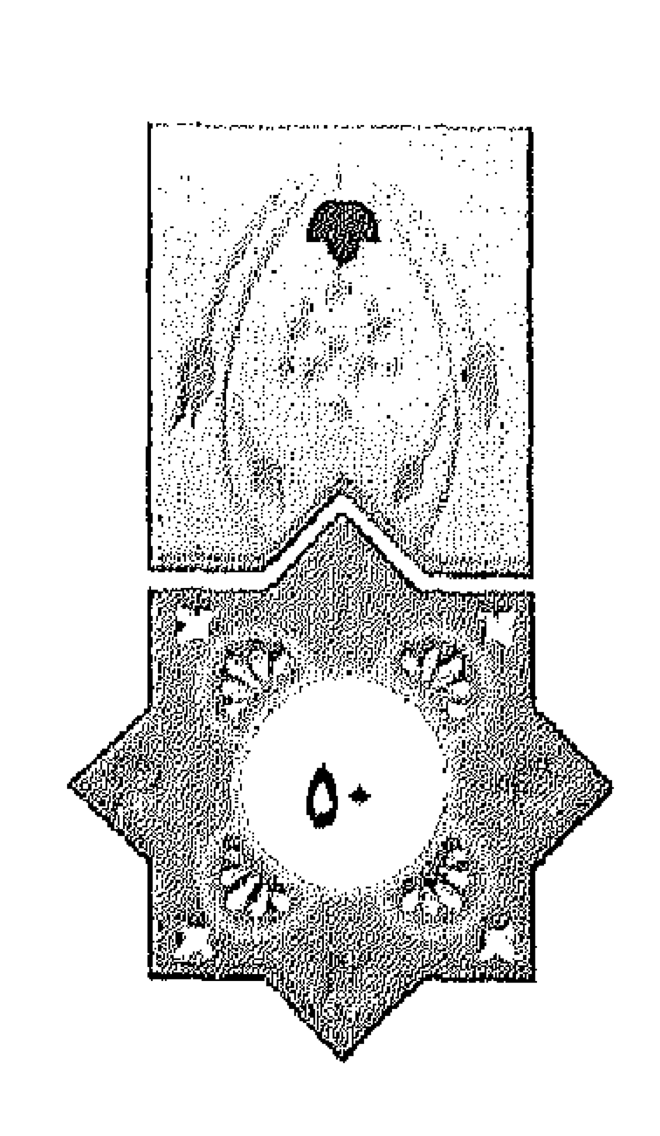
ريتشارد قلب الأسد فى موقعة أرسوف



الموقف المعقد بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام لريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا. وكان ريتشارد قد وصل متأخرا إلى بلاد الشام وقضى فيها عدة أشهر حتى انصرف عائداً إلى بلاده فى أكتوبر سنة ١١٩٢. على أن هذه الأشهر القليلة التى قضاها ريتشارد فى بلاد الشام تحتل أهمية خاصة فى إطار العلاقات بينه وبين صلاح الدين؛ ذلك أن التاريخ يسجل لتلك الفترة أنها تلقى أضواء على المقارنة بين فروسية الشرق كما مارسها المسلمون وفروسية الغرب كما مارسها الصليبيون. وتعبر هذه المقارنة عما كانت عليه الفروسية عند المسلمين من مثل كريمة وأخلاق تفيض بروح الشهامة والمروءة، وما كانت عليه فروسية الغرب من أخلاق تفيض بالخديعة والغدر. وكانت العلاقات المباشرة بين صلاح الدين وريتشارد خير مقياس يعبر عن الفوارق الخلقية بين الجبهتين الإسلامية والصليبية. ويكفى أن ريتشارد ما كاد يدخل عكا، حتى تناسى شروط الأمان التى منحها لحامية المدينة، وتنكر للعهود والمواثيق التى كان هو نفسه قد أقرها قبل دخوله عكا، فألقى القبض على من بداخل عكا من المسلمين "كانوا ثلاثة آلاف مسلم" وساقوهم إلى تل قريب، حيث "قتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيوف". وتمت هذه العملية تحت أنظار إخوانهم المسلمين الذين وقفوا عن بعد يشاهدون جثث إخوانهم تتساقط، وهم لا حول لهم ولا قوة. وشتان بين هذا السلوك الهمجى الذى اتبعه ريتشارد، وبين السلوك الإنسانى الخلقى الذى اتبعه القائد المسلم صلاح الدين عقب انتصاره على الصليبيين فى حطين، وكيف حرص صلاح الدين على السماح لأهالى المدن التى استردها من الصليبيين بالخروج آمنين سالمين، وبينهم بطرقهم يحمل صليب الصلبوت بل إن صلاح الدين استحضر الفاكهة والثلج وأرسلها إلى ريتشارد عندما سمع أنه يعانى آلام المرض أمام عكا.

ومن الواضح أن هذا السلوك اللاإنسانى الذى سلكه ريتشارد مع أسرى المسلمين. جاء نتيجة تأجج مشاعر الحقد الذى ترتبط صورته بما فعله صليبيو الحملة الأولى عندما ذبحوا داخل المسجد الأقصى أكثر من سبعين ألف لاجئا مسلما.

وكان أن أغلق صلاح الدين باب التفاوض مع ريتشارد حول أى موضوع يتصل ببيت المقدس. أما ريتشارد فقد أخذ يفكر فى إحياء مملكة بيت المقدس لتعود إلى ما كانت عليه، فأخذ يعمل لاسترداد مدنها وقلاعها، وبخاصة فى الأقاليم الممتدة من عكا إلى عسقلان (أغسطس ١١٩١). ولكن صلاح الدين لم يتركه يعمل فى سهولة، وإنما لاحقه، وانقض المسلمون على مؤخرة الجيش الصليبى عند عكا، فأنزلوا بالصليبيين خسائر فادحة. وفى أثناء مطاردة ريتشارد أصيب بجروح، فاضطر إلى طلب الصلح مع صلاح الدين. وهكذا استمر الموقف بين صلاح



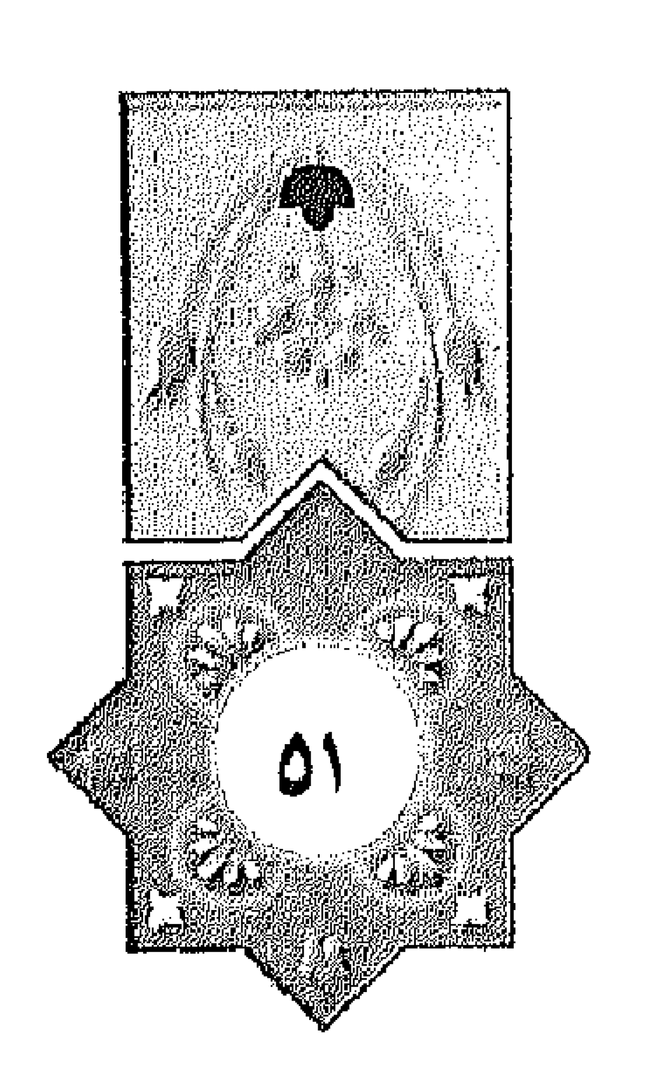
الدين وريتشـارد يتأرجح، حـتى انتصر الصليـبيـون فى موقعـة أرسوف فى سبـتمبـر ١١٩١، مما جعل الوضع يتـحول لصالح الصلـيبيـين. وقد أحس صلاح الدين بالحـرج أمام أمرائه بـعد موقـعة أرسوف، فـاتجه بسرعـة نحو تخريب عسقلان وإحراقها خوفاً من أن تقع فى أيدى الصليبيين. أما جماهير الناس فقد استولى عليهم الألم بعد هزيمة صلاح الدين فى أرسوف، وصار «الناس بين جريح الجسد وجريح القلب».

وبحركة سريعة مـحكمة اتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس وذلك فى أواخر سنة ١١٩١، إيماناً منه بأنها هدف الصليبيين الأول ومقصدهم الأساسى.

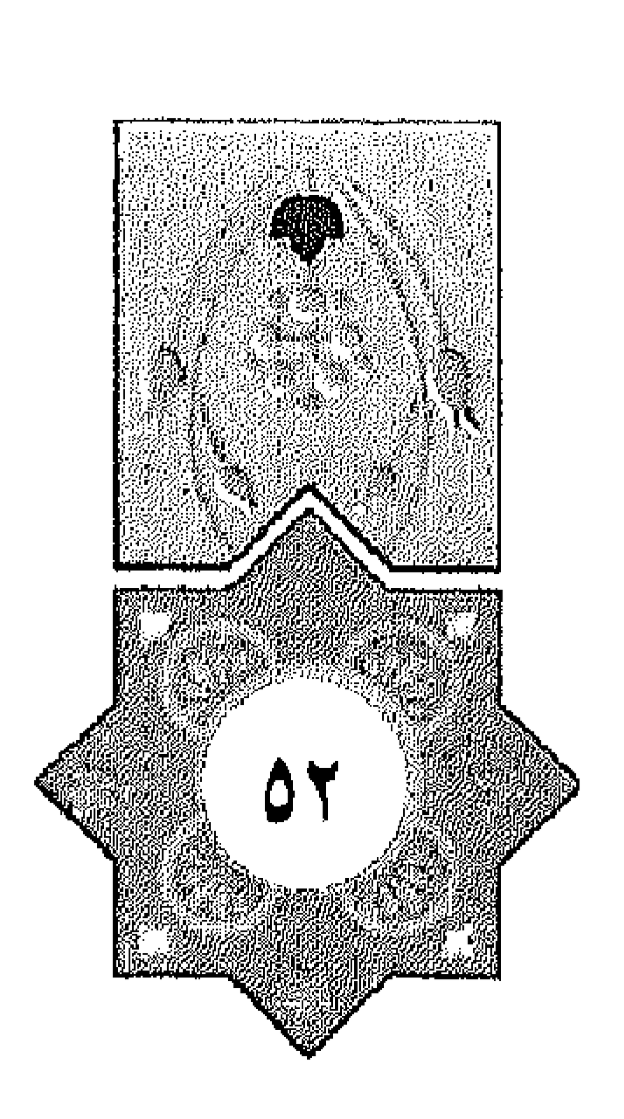
على أن ريتشارد استهدف بعد الانتصار فى أرسوف أن ينتهز الفرصة ويبادر بالاستيلاء على عسقـلان. وهكذا صار المسرح الأساسى للصراع بين المسـلمين-بزعامة صلاح الدين والصليـبيين بزعامة ريتـشارد قلب الأسد(ديسمـبر ١١٩١) يمتد فى البـقعة من أرسوف إلى قيـسارية إلى بيت المقدس. ومن ناحية أخـرى فإن صلاح الدين أخذ يعد عدته للدفاع عن بيت المقـدس "فقسم سور البلد على أولاده وأخـيه وأجنـاده". ويذكر المؤرخ ابن واصل أن صـلاح الدين عـمل بنفسـه فى عمارة سور بيت المقدس وحفر خنادقه، فكان«ينقل الأحجار-هو وأولاده وأجناده وأمراؤه، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء..».

وفى تلك الأثناء وجـدت المفاوضـات السرية من أجـل الصلح سبـيلها بين صـلاح الدين وريتشارد. ذلك أن ريتشارد أرسل إلى صلاح الدين فى أواخر سنة ١١٩١ يقول له: «إن المسلمين والإفـرنج قد هلكوا، وخـربت البلاد، وخـرجت من يد الفـريقين بالكليـة. وقد تلفت الأمـوال والأرواح من الطائفتين. وقـد أخذ هذا الأمر حقه.. فنصطلح ونسـتريح من هذا التعب الدائم». وقد أناب صلاح الدين أخاه العـادل ليباشر تلك المفاوضات مع ريتـشارد. وكانت قد وصلت إلى مسامع ريتشارد بعض الأخبار السيئة عن الأوضاع فى بلاده، مما تطلب عودته على وجه السرعة.

وهكذا ظلت الرغبة فى الصلح بين صلاح الدين وريتـشارد تتأرجح، بين القبول والرفض وكان الإنهـاك والتعب بـدت مظاهرهما على أتبـاع الفريقـين. وفى تلك الأثناء تدهورت صـحة ريتشارد، فى الوقت الذى ساء الموقف فى بلاده. وتحت تأثيـر هذه الأوضاع تم عقد صلح الرملة فى أوائل سبتمبر سنة ١١٩٢، وبمقتضـاه يكون للصليبيين الإقليم الساحلى من صور إلى يافا، بما فيه قيسارية وحيفا وأرسوف. هذا فى حين تكون عسقلان للمسلمين، وتكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين.. واشترط صلاح الديـن دخول بلاد الإسماعيلية (الباطنية) فى الصلح،



فى حين اشتـرط الصليبيون دخـول صاحب إنطاكية وطرابلس، «ورضى سـبتا والداوية، وسائر مقـدمى الإفرنجية بذلك»، أما الأماكن المقـدسة وعلى رأسها بيت المقدس فقـد بقيت فى أيدى المسلمين، على أن يكون للمسيـحيين حرية الحج وزيارة القدس دون تحميلهم أية أعباء أو رسوم. وكانت مدة الصلح التى اتفق عليها ثـلاث سنوات وثلاثة أشهر. وناب عن الملك ريتشـارد فى التوقيع على الاتفاقيـة بعض كبار أمراء الصليـبيين، فى حين مـثل الجانب الإسلامى الملك الأفضل والملك الظاهر-ابنا صـلاح الدين فضلاً عن أخيـه الملك العادل وبعض كبار الأمراء.

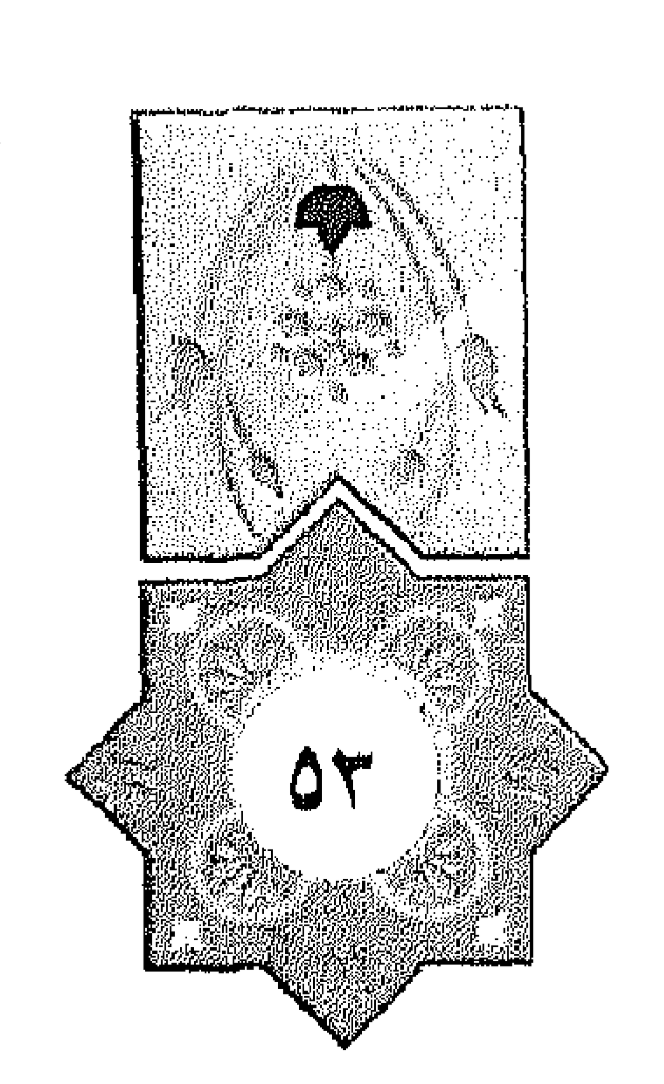




الفصل العاشر
خاتمة صلاح الدين

قوبل صلح الرملة فى الأوساط الإسلامية بالفرح والارتياح، مثلما قوبل به فى الأوساط المسيحية، وذلك بعدما لاقاه الجميع من ويلات الحرب وبلائها. أما صلاح الدين نفسه، فمن الثابت أنه قبل الصلح مضطراً بعد أن لمس وأحس بما كان من "سآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة". ولو سارت الأمور وفقاً لرغبة صلاح الدين، لاستمرت حركة الجهاد حتى يتحقق هدفه وينال رغبته فى تطهير بلاد الشام من الدخلاء، ولكن صلاح الدين اضطر إلى قبول الصلح، وكعادته أحس بضرورة الوفاء بالعهد، فأعلن عقب إبرام الصلح مباشرة «أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل».

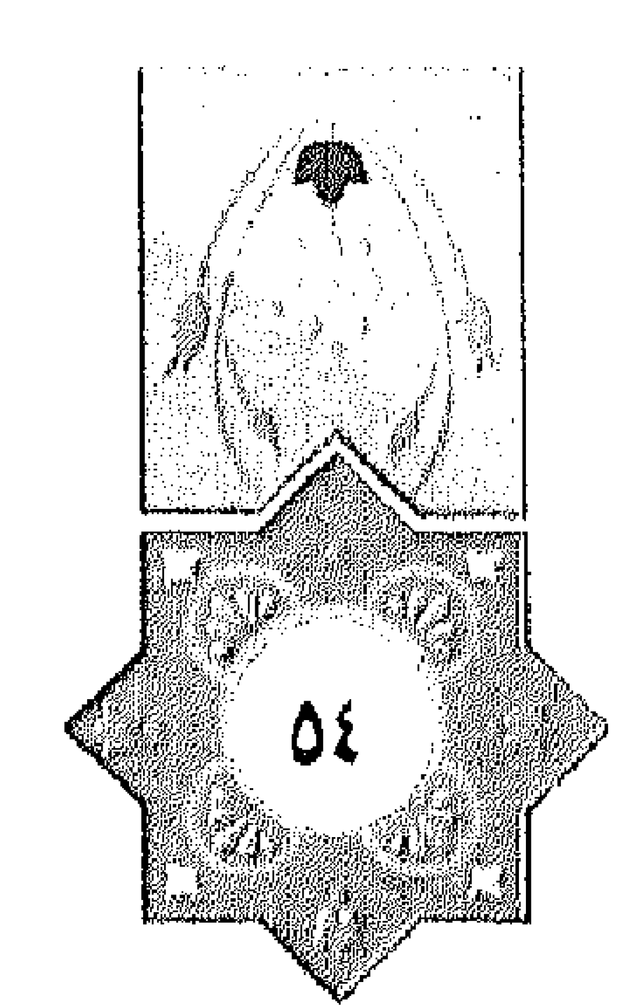
مدينة الناصرة المقدسة عند المسيحيين



وبروح التسامح والسماحة والانفتاح، لبى صلاح الدين ما طلبه منه أسقف سالسبورى من تعيين اثنين من رجال الدين الكاثوليك فى كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم، وكنيسة الناصرة، وذلك بالإضافة إلى ما كان فى تلك الكنائس من رجال الدين الأرثوذكس والسريان واليعاقبة.

وكان أن اشتدت الرغبة فى غرب أوروبا فى زيارة الأماكن المقدسة فكثرت أعداد الوافدين من بلاد الغرب الأوروبى، فضلاً عن بقية البلاد المسيحية فى الشرق والغرب. وقد انزعج ريتشارد قلب الأسد لذلك، وعمل حساباً لغضب صلاح الدين، "فسير إلى السلطان(صلاح الدين) يسأله منع الزوار، واقترح أن لا يؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتاب منه". ولكن صلاح الدين-الرجل الذى تحلى بخلق السماحة فى كافة تصرفاته، رد على المبعوث قائلاً إن هؤلاء الحجاج وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف فلا استحل منعهم"بل إن صلاح الدين بالغ فى إكرام من يرد على بيت المقدس من حجاج المسيحيين، "وشرع فى مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم". وهكذا لقن صلاح الدين المعتدين درساً فى تطهير النفس من رواسب الحقد الأعمى، وذلك قبل أن يتجه ريتشارد إلى سفينته ليبحر عائداً إلى غرب أوروبا فى أوائل أكتوبر سنة ١١٩٢.

قلعة دمشق



وما كاد صلاح الدين يتأكد من سفر ريتشارد ومغادرته بلاد الشام حتى وضع لنفسه برنامجا لتفقد القلاع والحصون والمدن الإسلامية التى كانت فى حاجة إلى قدر من الرعاية والدعم. وفعلاً غادر مدينة بيت المقدس بعد أن ترك فيها القاضى ابن شداد ليعنى بأمر البيمارستان الذى أنشأه فيها صلاح الدين، وإدارة المدرسة التى أقامها هناك.

ومن بيت المقدس اتجه صلاح الدين إلى نابلس ثم سبسطية، فكوكب فبيروت. وفى كافة المواقع التى زارها كان صلاح الدين يحرص على الاستماع لشكاوى الأهالى "ويكشف عن أحوالهم" . وبعد أن تفقد صلاح الدين القلاع الساحلية، وعمل على "سد خللها، وإصلاح أمور أجنادها، وشحنها بالأجناد والرجال" ، اتجه إلى دمشق حيث التقى بمجموعة من أولاده، فعقد مجلسا كبيرا حضره الخاصة والعامة، ونظم فيه الشعراء المدائح والقصائد؛ وجلس صلاح الدين ينظر فى شكاوى الأهالى: وينشر جناح عدله، ويهطل سحاب إنعامه وفضله" .

ومن المتواتر فى كتب التاريخ، أن صلاح الدين كان يحب دمشق ويميل إلى الإقامة فيها؛ ولذا قضى فيها أياماً طيبة بعد صلح الرملة، ولحق به هناك أخوه العادل وبعض أولاده، فمارسوا جميعا رياضة الصيد، وكأن صلاح الدين "وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب، وسهر الليل، ونصب النهار" ويذكر ابن شداد أن بهجة دمشق أنست صلاح الدين ما كان قد اعتزمه من قصد الديار المصرية، بل إنه أرسل إلى القاضى ابن شداد بالقدس يستدعيه ليكون إلى جواره بدمشق.

ومع ذلك، فإن صلاح الدين لم ينس أمر العدو الذى ما زال جاثماً على صدر المسلمين فى الشام، فاستمر يستقبل رسل الصليبيين ويتفاهم معهم حول المسائل التى كانت لا تزال معلقة بينهم وبين المسلمين. وثمة ظاهرة تسترعى الانتباه هى أنه لم يلاحظ على صلاح الدين فى تلك المرحلة شىء من علامات المرض، كما أنه لم يبد شكوى من ألم أو وجع. يستثنى من ذلك ما ذكره رفيقه القاضى ابن شداد الذى لاحظ عليه ثقل الحركة وانحراف المزاج "ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه" . على أن الواقع هو أن المرض كان عندئذ يزحف على صلاح الدين مرحلة بعد أخرى-وعندما خرج لاستقبال الحجاج سنة ٥٨٩هـ كان ذلك اليوم "آخر ركوبة"، إذ غشيته "حمى صفراوية" ، لم يفلح معها علاج الأطباء. وكان أن انتشر خبر مرض صلاح الدين فى دمشق، فاضطرب الناس، وغشيهم من الكآبة والحزن ما لم يمكن حكايته" . ولم يسمح لأحد بالدخول عليه سوى القاضى ابن شداد والقاضى الفاضل.

وبازدياد وطأة المرض على صلاح الدين أخذ يغيب ذهنه، وتنتابه حالات إغماء بين حين وآخر. وهكذا حتى كانت ليلة الأربعاء الليلة الثانية عشرة من مرضه، إذ ساءت حالة صلاح الدين

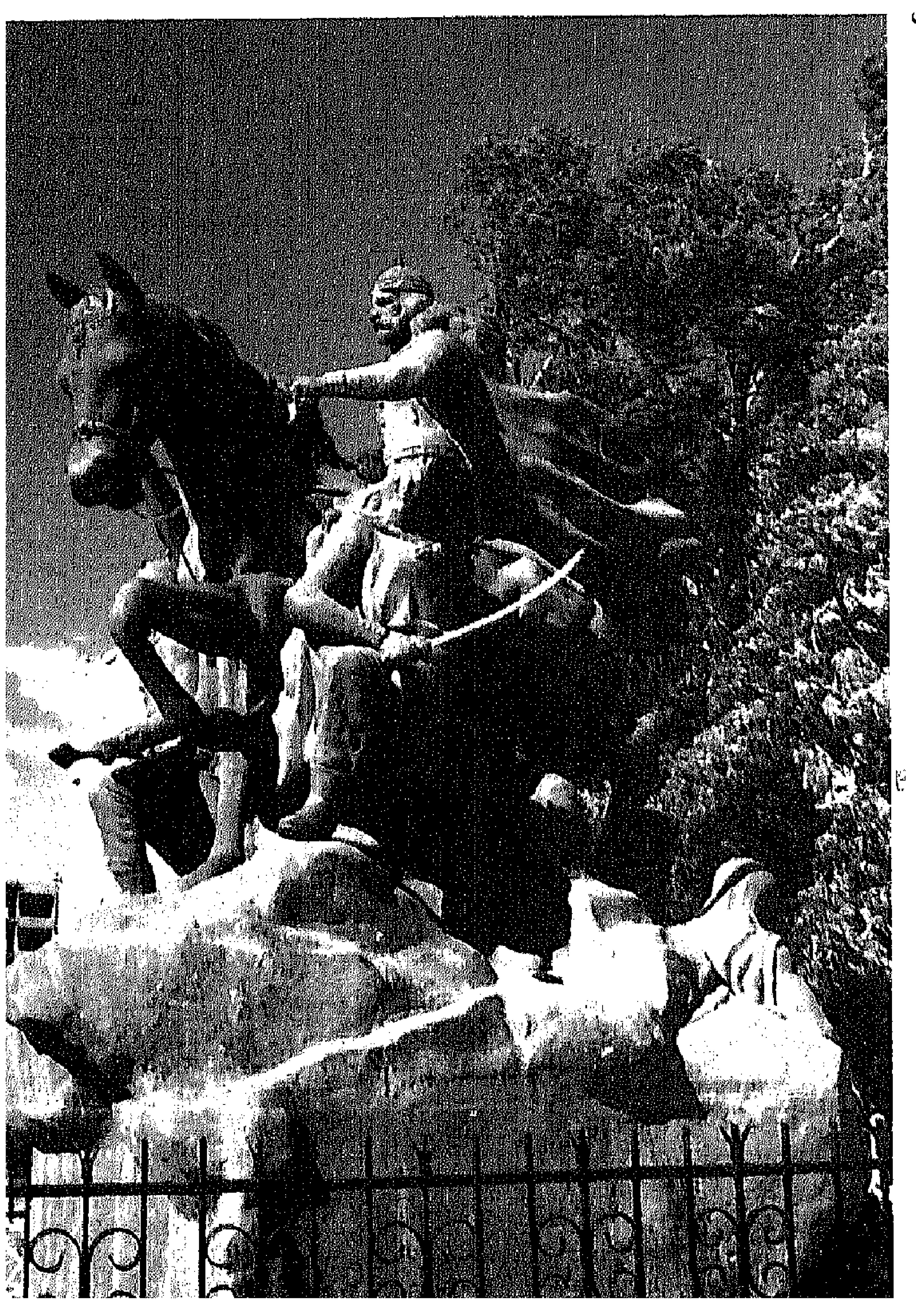
بدرجة واضحة، واستمر فى حالة غيبوبة طويلة لا يفيق منها إلا نادراً. وكان أن انتقلت روحه إلى رضوان الله بعد صلاة صبح يوم السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٥٨٩هـ).

وفى وسط موجة عارمة من الحزن والنحيب حمل جثمان صلاح الدين ليدفن فى قلعة دمشق، حتى شيدت له قبة (ضريح) فى شمال الكلاسة- شمالى جامعة دمشق- قرب المدرسة العزيزية التى شيدها العزيز عثمان بن صلاح الدين، فنقل إليها.

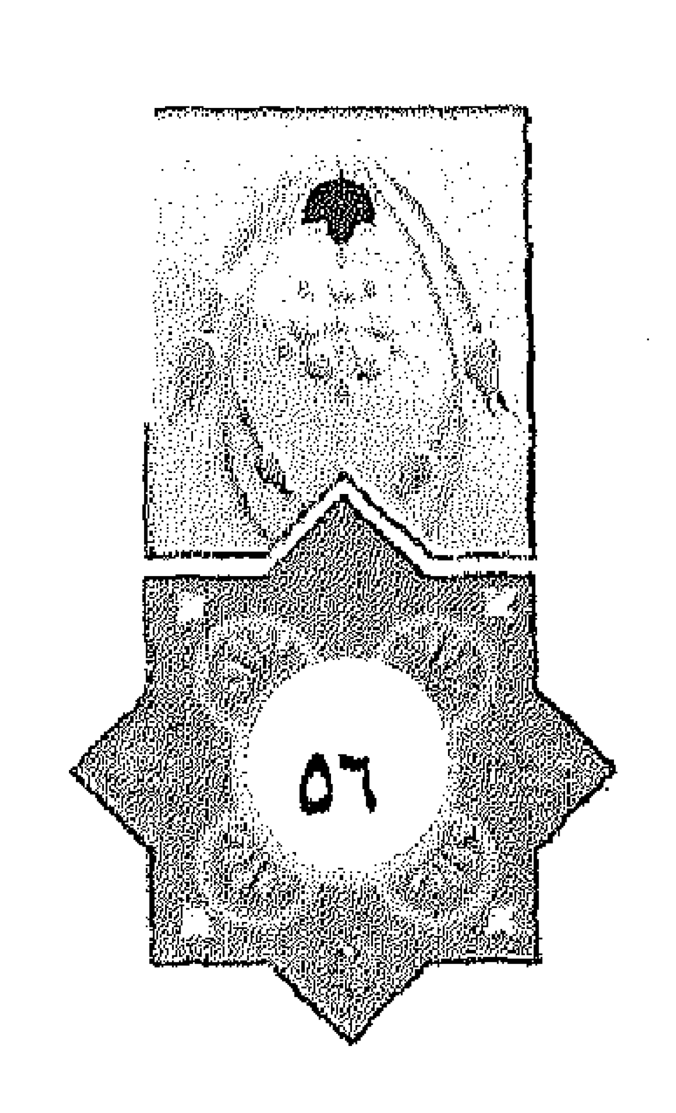
وبعد، فإن التاريخ حافل بسير الأبطال، ولكن صلاح الدين وقف وسطهم فى صورة فريدة تجمع بين الشجاعة فى ساحة القتال وصدق العزيمة فى مجال العمل المثمر الجاد، والحرص على التضحية فى ساحة الجهاد.. كل ذلك فى إطار الخلق الكريم والالتزام بروح الدين وآدابه والحفاظ على مكانته وسلامة أركانه.

حسب صلاح الدين أن يدعو له معاصروه بالرحمة مرددين دعاء صديقه وجليسه ورفيقه القاضى بهاء الدين ابن شداد "اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك؛ وجاهد رجاء رحمتك، فارحمه".

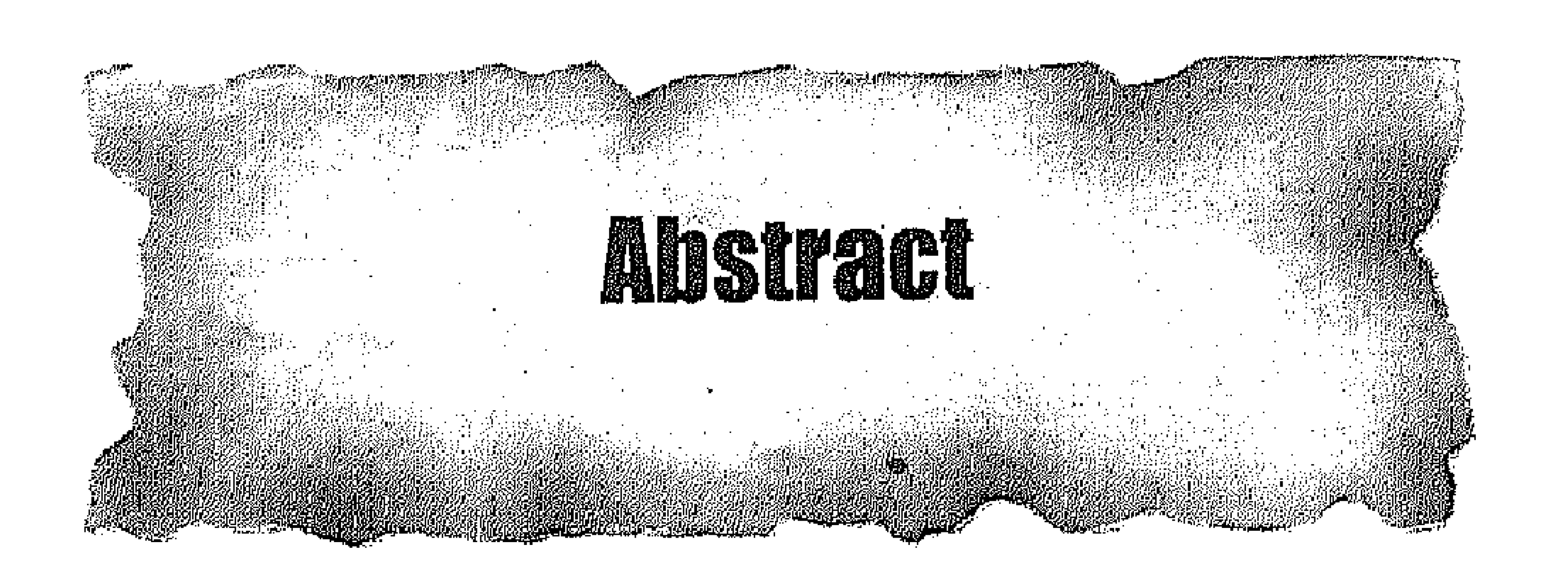
أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



نصب تذكارى - صلاح الدين الأيوبى - دمشق


٥٦

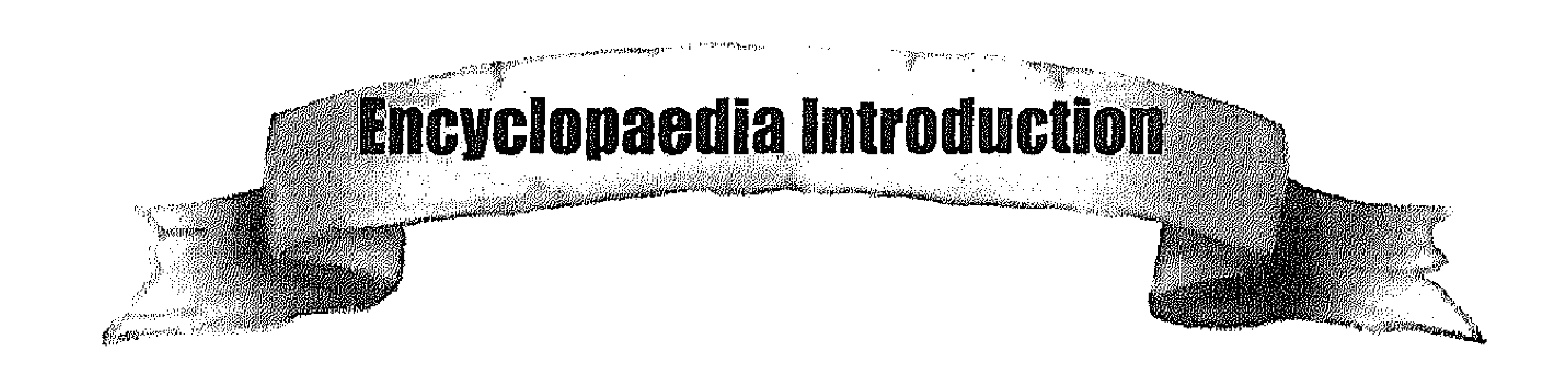

المحتويات



The work surveys the life-story of one of the greatest heroes ever in human history. The treatise is written by a distinguished professor of Medieval History, whose renown is world wide in diverse universities, this in addition to several books and researches that allowed him to achieve prominence in his field.

When a professor of the calibre of Saeed Ashour addresses the saga of Salah Ed-Dīn, the reader should expect chapters of revelation and new highlights in the epical story of this great Ayyubid Sultan. Due to the author's analysis of events, that other historians passed by without exerting much effort in finding the link between reasons and results, the reader will encounter new thoughts and ideologies that reveal many hidden facts discussed for the first time.

Dr. Said Asshour



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR: THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

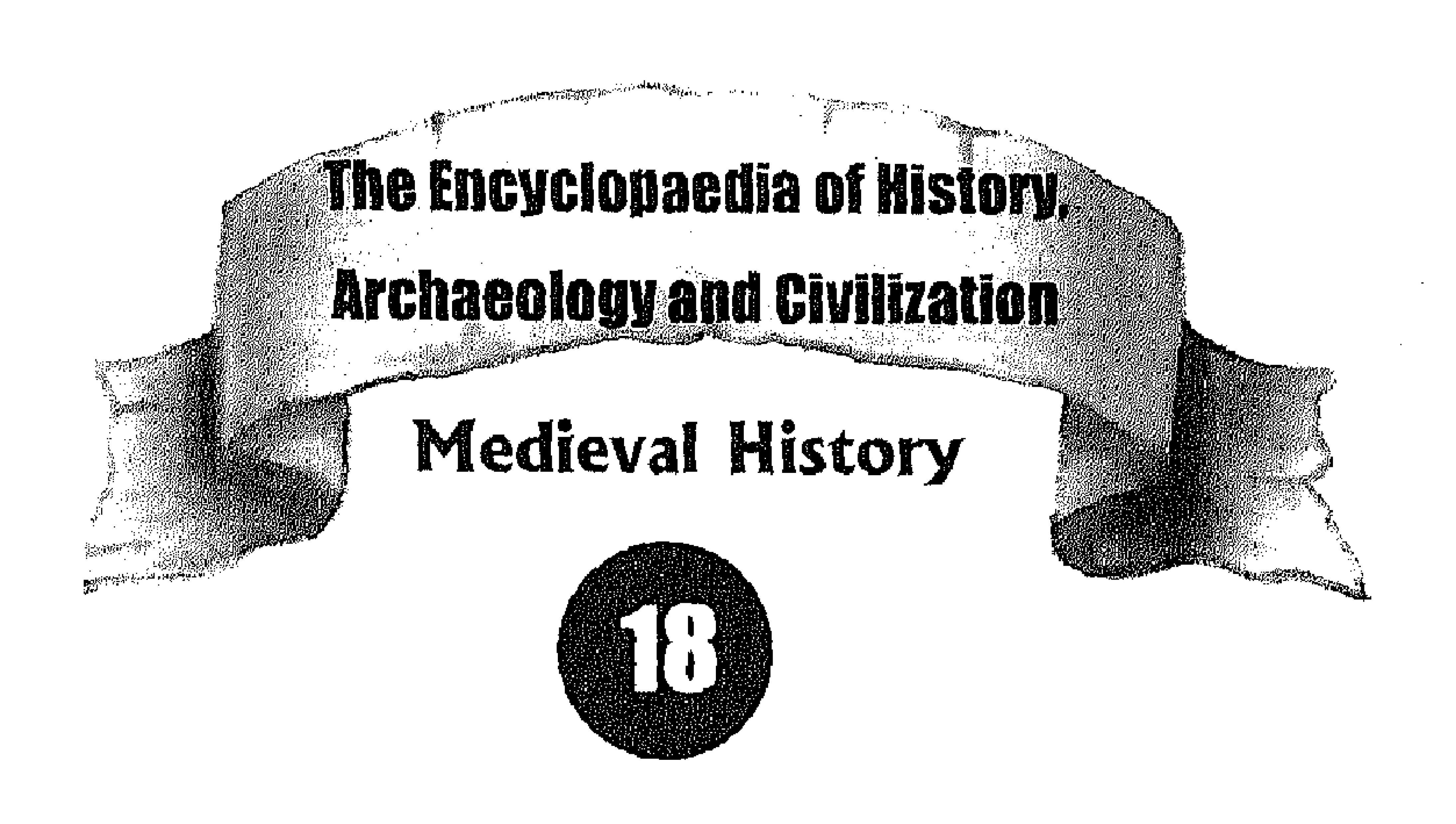
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



Salah Ed-Din



Dr. Said Asshour

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



Salah El-Din

Dr. Said Asshour

